أحفاد أورشنابي

أحفاد أورشنابي

رواية

أورشنابي: هو ملاّح "أوتونبشتم" الذي عبّر ملك أوروك "كلكامش" بطل الملحمة المسماة باسمه، بزورقه في مياه الموت، قبل وبعد حصول "كلكامش" على عشبة الخلود.

هيثم بهنام بردى

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-9948-446-59-0

جميع الحقوق محفوظة للناشر

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

أبوظبي هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
دبي هاتف: 2651623 (4-971+) فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

لوحة الغلاف: للفنان العراقي لميع نجيب

إن دار ثقافة للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء الدار.

الإهداء

في تلك العينين الزيتونيتين الألقتين المعلقتين في أعلى الوجه الحنطي الناحل، الذي تتهادى من نهايته لحية ذات شعيرات بيضاء مضمخة بالحناء، في تلك القامة المشدودة المتسربلة بعباءة رمادية، والمقتعدة أبداً – منذ الأزل – دكة طينية رطبة في أفياء شجرة السرو العملاقة، التي تفرض سيطرتها على الفضاء وتضم بين جنحيها الكوخ الطيني الآيل للتداعي والتنوّر المتفرد المقرور. في كل هذا الجوّ القرويّ الفريد كانت الحكايات تنتشر نابعة من ذلك الرأس، ثم تذهب الأحجية مسافرة في المراعي والحقول وفضاءات القرية الموبوءة برائحة البيبون والدمن ودخان التنانير وثغاء الشياه وقأقأة الدجاج وصياح الديكة ونهيق الحمير وهديل الحمائم المنتشرة في فضاءات القرى كأشرعة بيضاء. وكانت تلك الحكايات ترحل عبر العصور في تواريخ القرى الجبلية النائمة بهدوء ودعة الأطفال على كتف جبل المقلوب، تكتب تأريخها المضمخ بصليل السيوف والرماح والبنادق والرجال الذين تلفعوا الليل والنهار وصارعوا الزمان والمكان من أجل أن تبقى ((ب)) حية عبر العصور.

جرجيس، ذلك الشيخ الذي عاش حياته حتى النصف الثاني من عقده الثمانيني، كان يمسد رأسي الملقى في حجره الدافئ في ليالي الصيف المقمرة والمثقبة بالنجوم الوامضة، يحشو ذاكرتي الغضّة

بحكايات عبقة برائحة القرى: خبزها، وكرومها المنتشرة في حنايا البساتين، وسفح الجبل، والنساء المتسربلات بالحكايا السرّية المدهشة وفي أحشائهنّ تتولد أجنّة لأبطال ينسجون ويكتبون تاريخ القرى، والساقية الجارية أبداً صيفاً وشتاءً، ليلاً ونهاراً، تلك القرية التي استيقظت ذات صباح تشرينيّ لتعلن ذلك الانطفاء الخاطف في عيون جدّي، أيقظ في الذاكرة الفتيّة، تلك الحكايا المخبوءة في أعطاف الرأس، فكانت رواية أحفاد أورشنابي.

إلى جرجيس بردى الذي قال ذات ظهيرة: "الحياة حكاية".

أهدي هذه الرواية.

الفصل الأول

قال جدّي

لِمَ لا أكتب رواية؟ أية رواية، رديئة أو جيّدة، قبيحة أو جميلة، سوداء أو بيضاء... المهمّ أن أكتب، أن أطرد حنادس الخمول والخواء اللذين يقرضان رأسي كجرذ لا يستكين، إنه لرأي حسن أن أكتب... ولكن كيف أبدأ. ما أصعب البدايات، إنها كالولادات العسيرة، مخاض طويل وصعب، طلق موجع مترقب، ثم الألم، ألم قاتل ولكن لذيذ كالشهد، فيه ترقّب ولهفة واستعداد متأهب للفرح، كيف أبدأ؟ كيف...؟

يقال إنّ مفتاح الإبداع، أيّ إبداع إنسانيّ يتوقف قياس نجاحه الباهر من المفتاح، أو بمعنى آخر من البداية، من أول كلمة، من أول فعل... لأجد إذاً بداية متماسكة لهذه الرواية لكي توصف بعد ذلك بالرائعة، أو المتميزة أو البديعة... إلخ، وشملت غرفتي المؤتلقة بالضياء الحليبي بنظرة فاحصة وقلت لنفسي..

- لتكن البداية سردية.

وأنشأت أكتب:

(كان الليل المقمر يشمل جوانب القرية الصافنة والمحتفلة بالكرنفال الكلبي، غالباً ما أستلذّ بالسيل المتواصل من النباح الممزوج بالعزف الهادئ والسلس لسمفونية بتهوفن السابعة الآتي من جهاز التسجيل، فأذهب في تزجية جميلة وأنا أحاول أن أمزج السمفونيتين، تناغم نباح الكلاب والاتساق العجيب للأنغام.

كتب عليّ أن أعيش في القرى موظّفاً في الصحّة يسعى لطـــرد المرض عن الناس، وأنا المبتلى بالأمراض الصاعدة والنازلة، والظاهرة والمخفية، والصادقة والكاذبة، وأقضي ليالي القرية الطويلة والمملة في غرفتي المنزوية في طرفها الشمالي، أحاول أن أسرّي عن نفسي المعذبة والتوّاقة إلى التطواف في عوالم ومدن غير مرئية ولكـــن محسوســـة، فأحدّق في الكتب الكثيرة التي تحتل ثنايا الدولاب الحديديّ الصـــدئ المنخور القابع قرب النافذة، فأرى همنغواي بلحيته الســـمحاء وهـــو يرتكن إلى صخرة يحدّق في البحر وثمـــة في عينيـــه عـــوالم زاخـــرة بالغموض، وأعاين ماركيز وهو يطارد ماكوندو بأخيلته الجامحـــة في الحيّ اللاتينيّ بباريس، ويجفلني المتنبـــي وهو يمرق كالسهم ممتطياً صهوة فرسه يسافر إلى مفاوز مجهولة...).

ولكن مهلاً، ما هذا التزويق والثرثرة غير المجدية، هذه ليســـت مقدمة جميلة تشد القارئ، أين الرابط..؟ أين..؟

- أنت فعلاً كتبت شيئاً معقولاً.

همست:

- كيف...؟

وقبل أن أنخرط في النقاش، شعرت - فجأة - بـــأني وحـــدي في غرفتي، والوقت بعـــد منتصـــف الليـــل، فانـــذهلت ونـــبرت بتساؤل:

- من يكلمني...؟

فسمعت صوت ضحكة ليست غريبة عليّ، حاولت أن أتقصّى في مدى هذا الرأس الموحش، ولكن دون جدوى.

- أنا جدّك خضر، تستطيع أن ترفع طرفك وتراني.

ففعلت، ولشدة دهشتي، كان يجلس في الطرف المقابل للمنضدة، حدّقت إليه متمعّناً... الملامح نفسها التي رأيتها ساعة كان مَسجياً في تابوته في غرفة بيتنا؛ الوجه الأبيض، اللحية بيضاء، والعينان صقريتان، شيء واحد اختلف... هناك، في التابوت كان يرتدي كفناً، والآن يرتدي صاية بيضاء ثلجية، مددت يدي كي أصافحه فقال:

- لا أستطيع، لأني غير محسوس.
- ولكني أراك؟!
- صحيح، ولكنك لن تستطيع أن تلمسني...

ثم بعد صمت قصير:

- دعنا من هذا الآن وخبّرني، كيف أنت...؟!
- الحمد لله.
- جيّد، لنعد إلى موضوعك، أرى الحيرة تكتنف وجهك... أهربت الفكرة من رأسك؟
- ليس لديّ أية فكرة، ولكن بي رغبة شديدة للكتابة.
- هنا الخطأ يا بنيّ، في محاولتك الكتابة دون أي هدف تكون مثل ذلك البليد الذي حاول أن ينقل الماء بالغربال.
- كيف؟
- إنّ به رغبة صادقة لنقل الماء، ولكنه أخطأ الاختيار، وأنت أيضاً بك رغبة للكتابة ولكن لا تملك الفكرة، وقد جئت الآن من أجل مساعدتك.
- كيف...؟

- أحاول أن أذكّرك ببعض الحكايات التي كنت أكلّمك عنها، عن يوسف والرجال.

قلت باعتزاز:

- وقد كتبتها.
- نعم فعلت هذا ولكن فاتك الشيء الكثير، وكنت في عملك مثل ذلك الذي أثنى على جمال البيت - أيّ بيت جميل - وذوق الفنان المهندس الذي خططه ناسياً البنّاء، والحجّار، والعمال... إنك نسيت حكايا كثيرة من الحكايات التي سبق أن سردتها عليك.
- والعمل...
- ركّز تفكيرك وستتذكّر... وقد أساعدك.
- حسناً، أنا مستعدّ..

قال بحزم:

- سأحاول أن أعطيك المفتاح، ثم تتولى أنت بنفسك نسج كيان الأحداث ولكن لا ضير في المشاورة في شأن عَصِي، أو حادث لا تذكر تفاصيله بدقة.
- اتفقنا..

اعتدل على كرسيّه وقال:

- اكتب.

قاطعته فجأةً...

- ولكن مهلاً، ألم تقل قبل قليل، أنك تكتب ما عشته؟
- طبعاً.
- إذن عليك أن تتولى المهمة.

قال في تساؤل:

- ماذا تقصد...؟
- أن تصبح أنت الكاتب.
- ولكنها ليست مهنتي.
- جرّب فقط.

صمت قليلاً، سها في لحظة خاصة، ثم رمقني بنظرة حب وقال شاهراً سبابته في وجهي:

- قبلت ولكن شرط ألاّ تقاطعني مثلما كنت تفعل وأنت صبيّ.
- اتفقنا... ولكن كيف ستشكل نسيج القصة، أقصد بأية طريقة ستكتب أبالسرد، أم بضمير المتكلم أم الغائب، أم بتيار الوعي...
- هذه التسميات لا تهمني، سأسرد على طريقتنا القديمة، سأصبح أنا الحكواتي، وأنت السامع... هل ترفض..؟
- بل أوافق..
- اكتب إذن.

كان يا ما كان، وليس أحسن مما كان، وعلى الله عزّ وجلّ التكلان، كان هناك ضيعة اسمها (ب) على قدر كبير من الأبّهة والجمال، ترتكن كبدر البدور بكل جلال، وبهدوء واتزان على كتف تلٍ عالٍ، وتشرف بكل سرور على غدير ذي ماء قراح... وذات حول من الأحوال، وليس أبهى وأطيب من تلك الأيام حيث تنعقد سنابل الحنطة والشعير وتثمر الغلال، وتكتسي الأرض بكل الألوان، في تلك الأيام من تلك الأعوام ولدت أربع نساء هنّ: سعدية، شمسة،

بهية، ومريم أربعة أولاد هم: يوسف، خضـــر، فاضـــل ويـــونس... وكأنهم فُرُخ النعام، أو أشبال صغار، وعاش هؤلاء الأطفال طفولـــة ومراهقة، إلى أن كتب الله لهم تلك الحياة الضاجّة وعدم الخـــذلان، واقتحام المصاعب والأنام.

جدّي يعرّفني بالرجال:

وبعد، يا سادة يا كرام، سأحدثكم عن الرجـــال... فخضـــر ولدته أمّ تقيّة ورعة في ليلة ربيعية صقيعية ولا غرابة أن يسميَه والده بالخضر، ولم تأتِ تسميته صدفة أو اعتباطاً، ولكـــن عـــن درايـــة وتصميم تيمّناً بذلك التقيّ الصالح الذي أحبّ الماء حدّ أنـــه اتخـــذه مأوىً له يقضي فيه حياته الرخية الورعة... فالخضر لا يزال يتـــذكر كلمات أمه...

فجر ولادتك هطل المطر كالأنهار وارتوت الأرض حـــتى الثمالـــة وسالت المياه في الوديان، في هذا الجوّ البديع من احتفال السماء والأرض أطللت فجر ذلك اليوم وصاحت الجدّة التي أولدتك مذهولة:

- رباه... إنه يضحك!

وفعلاً، سمعتك تكركر بصوت ناعم ملائكي، فطـــرب أبـــوك وتعتعهُ الفرح وهتف:

- إنه الخضر... الخضر.

ومع الأيام، وكأن الإرادة الربانية تحاول أن تخلق من الصـــالحين أشباهاً فقد نموت دمث الطبع، تميل إلى الهـــدوء، لا تهـــاب الليـــل والعفاريت، وفوق ذلك محب - حدّ الجنون - للماء، حيث تخـــوض في ساقية القرية صباحاً ومساءً، صيفاً وشتاءً.

ويونس هذا العفريت الصغير الذي لو تسنى لحوتٍ بـــائس أن يبتلعه فلن يبقى في أحشائه ثلاثة أيام قط، فهو لم يبق في رحم أمـــه

سوى سبعة شهور، وتسميته بهذا الاسم كانت تلبية لرغبة جـــده في إحياء اسم والد يونس، الذي قتله عصمت آغـــا... لا أزال أذكـــر جدّه، ذلك الشيخ الجليل الذي يتفيأ الجدار الشرقي لدارهم الكـــبيرة ساعات القيلولة التموزية وهـــو يحـــدّق أمامـــه بعينيـــه الـــذاويتين ويستطرد...

- إنّ أباك قتل غدراً يا بني..

فيسأله يونس:

- كيف قتله يا جدّي...؟

فيسرح الجدّ في البعيد، يقول:

- أنا لم أعاين، ولكن أحد الرجال الذين كانوا ينظرون عـــن بعد دون أن يلحظهم حرس عصمت آغا هو الذي قال إنّ الآغا بعد أن بصق على وجوههم صرخ بغضب:

- أنتم بهائم، خسارة الرصاص فيكم.

وكان الرجال المنكودون منكّسي الرؤوس إلاّ يونس، فقد كان ينظر في عيني الآغا تماماً.

قال عصمت آغا..

- لكني سأرأف بحالكم.

توالت الهمهمات من الرجال إلا أباك فقد ظلّ كما هو رافـــع الرأس ثاقب النظرات:

- سوف أعتقكم إذا فداكم أحدكم.

ران الصمت وغلف الاستسلام الوجوه الأربعة، إلاّ وجه يونس الذي ظلّ على جلده وثباته بيد أنّ قدميه تحركتا إلى أمام وفمه هتف:

- أنا الذي أفديهم.

- وبعد يا جدّي...

دارى الجدّ حسرة عميقة وقال في صوت آسر حزين:

- قتل الآغا الفدية، ثم قتل بقية الرجال.

... وإن كان ثمة ما يميز فاضل عنا كلنا فهو فضيلته وعفافه، وكأنّ القدر هو الذي ألصق به هذا الاسم، فهو فاضل حقاً وشاء أبوه أن يسميه فاضلاً، كان ذا صوت شجيّ يطربنا في ساعات الخلوة والسمر في الليالي الصيفية المقمرة تحت سقائف العنب، أو نلعب (الحالوسي)(*) في بستان الضيعة.

ولكنّ الحديث عن يوسف يأخذ طابعاً أكثر حرارة، فأية صفة تتكلم عنها حتى تعرج إلى خصال أخرى أجلّ وأعظم، فتأخذنا الحيرة في المفاضلة بين صفاته فهو وسيم حدّ الكفر يسبي قلوب العذارى حين يمشي في أزقة القرية المتربة، وهو لطيف مثل الأنسام الربيعية، وهو متواضع وخجول... وكان يوسف يتحلى بصفة أخرى ميزته عن جلّ شباب القرية ورجالها. كان مقداماً لا يهاب المبارزة والعراك والمكاتفة، طرح وهو صبي أربعة صبيان أرضاً وبارز وهو في الرابعة عشرة الفرسان الشباب، ولّما نبت له شاربان قام بالمستحيل... والمستحيل في (ب) تحدي شاكر، الأسطورة التي نسجت حوله الحكايات المهولة والبطولات الخارقة، فنازله. كان ذلك اليوم من أيام (ب) التي لا تنسى، فقد ظل البطلان بين كرّ وفرّ، وإقدام وإدبار، وفكاك وصدام حتى العصر، فما تعب البطلان واستقر

(*) الحالوسي: لعبة يمارسها الرجال في المقاهي وهي عبارة عن لوح خشبي فيه ست عشرة حفرة، ثماني في كل جانب وفي كل حفرة ثماني قطع صغيرة من الحصى.

رأي الفرسان على تعادل البطلين، فأخذ الرجال يعانقون شاكر على فتوّته وقوته وهو في سنّ الخمسين وحملنا يوسف على الأكتاف، وكانت ليلة على غير ميعاد، أكل الرجال الخراف السمان ولعبوا بالسيوف والصفاح وعندما دجا الظلام تفرق الناس إلى المنام، وذهبنا نحن شلّة الشباب إلى البستان وجلسنا عند البستانيّ حميد الكهل الستينيّ الذي أطنب على قوة يوسف، ثم فجأة قال:

- سأقص عليكم إحدى حكايات شاكر.

ثم اعتدل في جلسته وأهمى لف سيكارته، أشعلها، مجّ منها نفساً وقال:

- كان الوقت ليلاً، إحدى ليالي الشتاء القارصة، كنت منهمكاً في تغذية الموقد بالحطب حيث تتعالى أسنّة النار البرتقالية وتشيع في الغرفة الطينية دفئاً يبدد أسياخ البرد ويمضي ضياؤه مجتازاً زجاج النافذة ومنفرشاً على أغصان العريشة الجرداء، حين نما إليّ، أو هكذا خيل إليّ، أنّ ثمة صرخة رجل مكبوتة وقد ترددت في الأرجاء، فتيقّظت حواسّي وأخذت أنصت، ثم تهيّأ لي سماع قرقعة السيوف فقلت وقد أوشك اليقين أن يحتويني:

- كيف يدخل اللصوص (ب) وشاكر موجود...؟

وفكرت في السرقات التي وقعت في الآونة الأخيرة... فلخمس ليالٍ متتاليات تستيقظ القرية على صراخ رجل ملتاع وهو يزفّ الخبر الفاجع بقلب مقهور، لقد سرقت البقرة...؟ أو النعاج.. أو حتى الدجاج، فأصبح أمرها شغل أهالي (ب) الشاغل، وأخذوا في التمامهم في مقهى القرية يحدّقون في شاكر بعتاب، أو من يطلب

نجدة، ويبدو أنه قرر أن يفعل فأخذ يلبد كل ليلة في الروابـــي أو حذاء التل، أو عند الساقية ولكن دون جدوى – حيث عرفنا بعـد الحادثة أنه كان يبقى حتى الفجر ساهراً ينتظر اللصـوص، ولكنـهم كانوا يدخلون ويظفرون بالغنيمة، وربما لأنه كان وحيـداً، أو قـد يتجنبوه – كانت القرية تستيقظ في الصباح على سرقة جديدة ولكنه لم ييأس ويبدو أنه الآن في حالة التحام صميمي مع اللصـوص – لم أفكر جدياً بهذا رغم علمي اليقين بأنّ شاكر لن يقف مكتوف اليدين حيال الأمر، خرجت بعد أن تمنطقت بسيفي وابتلعتني العريشـة في ظلمة الهجيع الأخير، اتجهت صوب الحائط الموازي لسفح التـلّ... ارتقيت الحائط، كانت الأصوات تأتيني جليّة الآن، وصوت شـاكر ينبثق كزئير أسد هصور، فتملكتني الحميّة فارتقيت الحـائط وحالمـا أصبحت فوقه تماماً لمحت شاكر – تحت ضوء القمـر – كالضـيغم، يتعارك بسيفه وقدميه وقبضته وحتى برأسه، وكـان ثمـة جسـدان يفترشان الأرض دون حراك والدم يغسـل ملابسـهما، والأربعـة الآخرون يحاولون النيل منه ولكنه كان كـالزئبق لا يسـتكين ولا يتطاوع ولا تطاله ضرباتهم الماحقة، فهتفت، وقد سـافر الـدم إلى رأسي كالينابيع الحارة.

– أبشر يا أبا يوسف.

هتف دون أن ينظر، وقد عرف صوتي:

– حياك الله يا حميد، لا داعي للتكلفة سأنتهي منهم حالاً.

ولكني قفزت فوق رأس أحدهم، وقع وأنا فوقه أمسـكه مـن زلعومه وأعصر بكل قواي حتى انتفض أخيراً بعنـف ثم أخلـد إلى السكون، ولما نهضت منه سمعت صرخة حادّة مؤلمة، فحدقت بلهفـة

وإذا بشاكر ينظر – للحظة قصيرة – إلى رسغ يده الأخرى وقد تدلت راحة يده إلى الأسفل و لم يبق بين الكف والرسغ إلا طبقة خفيفة من الجلد فصرخت في أسف:

– لا عدمتك (ب) يا زين الفرسان.

كان قد انقلب إلى وحشٍ ضارٍ، فقفز نحو الرجل الباقي مثل الصاعقة، تناوشه بيده السليمة ووضع رقبة الرجل تحت إبطه واعتدل في وقفته فطار جسد الرجل متأرجحاً في الهواء – لقامة شاكر الفارعة – أخذ الرجل المخنوق يلبط قدميه ويضرب بهما الهواء حتى تدلتا بالتالي دون حراك، فألقاه شاكر إلى الأرض وإذا هو يستكِين فوق العشب، لحظت ثمة ازرقاقاً طاغياً في وجهه وقد خرج لسانه من فمه، حدقت في شاكر... أمسك رسغه ثم تناول يشماغه[1] وقال:

– شدّ الرسغ بقوة يا حميد.

ففعلت وأنا أتمتم:

– بسيطة إنشاء الله.

فسمعت صوته كصفير الرياح الغاضبة في غابة جرداء:

– لقد انتهت يا حميد، لا يجدي معها إلاّ القطع.

فجمدت في مكاني مأخوذاً...

– شاكر، ماذا تقول..؟

– لا جدوى يا حميد، إنّ العصب مقطوع.

ثم قال بعد برهة تفكير:

– هل أجد عندك دهناً؟

– نعم، لدي منه القليل.

---

(1) يشماغه: الكوفيه.

قال في لامبالاة عجيبة:

- هيّا إلى الداخل.

ولما أصبحنا في الغرفة قال في لطف:

- أحم الدهن حتى يحترق.

- ماذا ستفعل؟

- سترى.

لما أزّ الدهن في المقلاة، عمد - في وهلة خاطفة لم أع منها سوى المنظر الخاطف الرهيب - إلى السيف وبضربة واحدة وقعت الكف أمامي على التراب ثم وضع طرف الرسغ النازف المبتور في الدهن الملتهب... شممت رائحة اللحم المحروق ثم رفع رسغه ولفّها في قطعة قماش، وقال:

- عطشان.

ناولته الماء فلما ارتوى آل إلى الصمت وأحسست في وجهه آثار السهر والتعب والألم فقلت له:

- تستطيع أن تأخذ قسطاً من النوم.

- على شرط أن توقظني بعد ساعة لكي ندفنهم وندفن هذه أيضاً.

وأشار إلى الكف الملقاة أمامه...

- وأن لا تقول لأحد، ما حدث...

قلت في تعجب:

- لماذا؟

- لأنهم من رجال عصمت آغا، القرية ليست في حاجة إلى مشاكل مع هذا الظالم.

- قد يكشفون الأمر.

قال بثقة وعيناه تومضان ببريق خاطف:

- ننكر هذا، ليس لديهم ممسك علينا.

وفعلنا ما اتفقنا عليه في الفجر المتأخر، وانتشر خبر يده المقطوعة في (ب) وعلم الرجال - رغم عدم تكلم شاكر - أنّ الرجل فقد كفّه دفاعاً عن القرية.

ولما انتهى حميد من سرد الحكاية قال في توسل:

- يا أولادي، بحق الله، لقد زلّ لساني وأفشيت السر، ولكن أرجوكم ألا تخبروا أحداً بهذا، إنه عهدي لشاكر وقد أودعته صدوركم.

ونحن نقسم له بالكتمان لمحت ثمة في عيني يوسف أشبه بدمعة وهو يحاول جاهداً أن يكبح جماح عواطفه، وفي قسماته علائم الندم على تحدي هذا الصنديد... ولكن على أية حال، بقي الجبلان شاهقين، لا ينهزمان، وتبقى الريح مهما بلغت من قوة تتكسر على صخورهما مثل مياه الغدران...

أما سليمان وداود وجمعة وحاتم فكانوا يكبروننا بخمس سنين تقريباً، ولكن رغم هذا البعد الزمني في الكبر، إلا أنهم آثروا أن يكونوا من الخلان والأحباب والأصحاب.

جدّي يقول: الآغا رجل لا ذمة له ولا ضمير

وبعد يا ولدي...

إن عصمت آغا الظالم حاول في يوم ما أن يسرّي عن نفسه المضطربة فماذا فعل...؟ وأية تسرية جميلة كانت، ولكن قبل أن أسرد عليك الحكاية، ربما تتساءل، من يكون عصمت آغا هذا..؟ وما علاقته بقريتنا وما أصله؟.. إلخ، لم يكن الآغا من (ب) بل من ضيعة لا تبعد عنها أكثر من ثلاث ساعات ونيّف، وكانت لديه حظوة كبيرة عند والي الموصل التركي، لذا فقد كان يفعل ما يحلو له من آثام وجرائم دون وازع من ضمير أو خوف من سلطة، كان له أتباع مدججون بالسيوف والبنادق ويسكن مع نسائه الأربع في قصر منيف مبنيّ من الحجر والجصّ في (ك)، وكانت له كلبة بيضاء كأنها الذئب، وكان يفضّلها كثيراً ويحبها بجنون، حتى أشيع عنه بأنه كان يحبها أكثر من أولاده، لم يسلم رجال (ب) من أذيته حيث قتل يونس مع أربعة من قرية (س) المجاورة حين اتهمهم الآغا زوراً وبهتاناً بأن شياههم قد دخلت مراعيه وعاثت فساداً في الزرع، لذا فإنه صادر الشياه وقتل الرجال... وهذه الحادثة التي سأرويها لك حدثت لبعض من فلاحي قرية (ك) التي يسكنها، لا لشيء إلا تسرية عن النفس المقبوضة وإرضاءً لنفسه المتهوّرة العطشى للدماء.

أسرّ عصمت بك لنفسه:

- إني ضجر، ماذا أفعل...؟

وحدّق في الأرض الخضراء المترامية أمامه، كان الرجال نصف

عراة منهمكين في عمل دائب يزكّون الزرع من الزيوان ويهصرون في ثنيات ترابها المغسول بالمطر، دماءهم الفائرة المكبوتة، وعيونهم تلتصق في تحديق خفيّ يعجّ بنداء خافت وغامض نحو عصمت آغا الجالس على الدكة الطينية والناركيلة تبقبق بين قدميه بصوتها الممل المألوف، ردد عصمت آغا لنفسه:

- كيف نسري عن أنفسنا؟

وانطبع ما حدث أمس في ذهنه بكل جلاء...

بكل بهائها وجمالها حطّت في الحقل، أصاخ السمع جيداً، همس... إنه ذكر ولكن أين أنثاه...؟ وقبل أن يكمل رآها تهبط بريشها الملتمع تحت إبر الضوء وتختفي في الزرع، أمسك البندقية جيداً وأخذ يقترب بحذر، حرص على أن لا يصدر عنه أي صوت، قد تحفل وتطير إلى الحالق، ورآهما جيداً، الذكر والأنثى في حالة عاطفية حارّة، ينقر الذكر أنثاه، تنجذب هي نحوه، نصب خشبة البندقية على كتفه جيداً، صوبها على الجسدين معاً، بالغ في التدقيق وأطلق...، طار سرب من الدراج وقد ذعر من الدويّ، ركض نحو المكان وهو غير مصدق، أكان كل هذا السرب هنا؟ ضاعف من جريه وثمة هاجس لا يخفي يدغدغ رأسه وسؤال يلحّ عليه، كم دراجاً سقط؟ ولما وصل لم يجد شيئاً البتة، شيئاً...

وصفق بيديه وهو يفكر.

- أحتاج للتدريب، أجل إنها فرصة جيدة، أسرّي عن نفسي وأتدرب في الوقت نفسه.

جاء رئيس الحرس راكضاً، انحنى أمامه وقال بأدب:

- أمركم آغا.

لفّ الأنبوب المطاطي حول الزجاجة وقال:

- أحضر لي عشرة من هؤلاء.
- أمركم آغا...

صرخ به بتبرم:

- دعني أكمل يا حمار.

تلعثم رئيس الحرس في إجابته:

- خادمكم المطيع، آغا.

استطرد الآغا باحتقار:

- البندقية، وبسرعة.

***

تناول السوط ونهض من الدكة، كانت الأجساد المتلاصقة بحميمية في صف متلاحم تنظر إليه بإعياء، طفق يتأملهم وقد لوى بوزه تأففاً والسوط يتأرجح بين ساقيه المنفرجتين، سرى الدم - الذي يحسه يلسع كالنار الكاوية في خديه - والتمعت عيناه بالبريق الذي لا يقاوم ثم ردد لنفسه:

- سرب لا بأس به.

ونظر في وجه الأول وهمس:

- دراج معافى.

وتحول إلى الثاني:

- كلهم ذكور.

ثم تراجع إلى الوراء وصاح بهم:

- اسمعوا يا بهائم.

وتوقف ريثما تسري الجملة في رؤوسهم ليلحظ ردّ الفعل، ... مثل أحجار صلدة، لا تفصح وجوههم الأسيانة عن شيء، فاستطرد بالصيحة نفسها:

- أترون الحائط خلفكم؟

لم يكلف أحدهم نفسه مشقة الاستدارة، وكأن الكلام لا يعنيهم، فيما طفقت عينا الآغا تتأملان الحائط الطيني الشاهق المنتصب بكل شموخه وعلوه.

- سأعد لحدّ مئة، الذي يستطيع بلوغ قمته ينجو، أما الذي يتخلّف، رصاصة في الرأس أو الصدر، مفهوم.

ثم أقعد كرسيًّا وهتف...

- هيا.

***

عشرة أجساد ترشح بالتعب وتنبض بالسكينة، لم يقعدها يباس أيام العمر من التعلق بالحياة فاندفعت بكل قواها الإنسانية في الانعتاق من بوتقة الفناء مثل ربان غريق أبصر – فجأة – فناراً قريباً، كان الفنار بالنسبة إليهم تسلّق هذا الحائط الباسق حيث تشرق السماء فوقه زرقاء لازوردية، في نضالها المرير ذاك كانت تصدر صيحات مبتورة وهمهماتٍ غامضة وأنفاساً هائجةً تعلو من أثرها صدورهم بصخب وتهبط صاغرة، كانت الأجساد الإنسانية تتكاتف، تتقافز، تتسلق ثم تهوي إلى الأرض لتبدأ من جديد دون كلال، والآذان تتسمع بخوف مسعور:

- واحد وستون، اثنان وستون، ثلاث وستون...

***

أصبح قريباً جداً من الحافة العلوية، يندفع بكل قـــواه، بيديـــه وقدميه وبأسنانه إن اقتضت الضرورة لتسلق البقية الباقية من الحائط، يحس بأنّ الأيدي ترفعه من تحت ويوشك على الطيران، ينظر تحـــت، الأكف والسواعد تسانده وتدفعه إلى الأعلى، تزحـــف يـــده نحـــو الأعلى، تقبض على الحافة العليا، يسمع أصواتهم:

- تمسّك جيداً يا حمد.

يزحف يده الأخرى ويتعلق بالحافة ثم ينهض جسده ويستوي – مثل الحلم – فوق السور، يجلس والإعياء يرتديه ويســـحب شـــهيقاً عميقاً ويتطلع إلى الأرض المفروشة تحته والمزدانة بالخضرة، ثم ترتفـــع عيناه نحو السماء المكللة ببعض القطع الصغيرة من الغيـــوم الربابيـــة، ولكنه يسمع فجأة:

- خمس وثمانون، ست وثمانون... سبع و...

ويحملق نحو الأسفل، يجد الرجـــال – ولدهشـــته المفاجئـــة – يفترشون الأرض واليأس يصفد وجوههم الناضحة بالرعب من الآتي الفاجع، يصرخ بهم:

- لِمَ أنتم جلوس؟

يجاوبه أحدهم:

- لا جدوى يا حمد.

ويقول آخر:

- سلّم على أهلنا يا حمد.

ويهتف ثالث:

- قبّل أولادي واحداً واحداً، وبالأخص زيد.

ورابع..

- .....

وخامس..

- .....

والدويّ ينيخ أذنيه:

- اثنان وتسعون، ثلاثة وتسعون.

***

حلق في الهواء، أغمض عينيه وطار هابطاً فوق طبقة لدنة من وسادة هوائية، أو فوق بساط سحري، أحسّ بألم خفيف في أطرافه ففتح عينيه.. وجد نفسه على الأرض والعيون تحدّق إليه بذهول، من الخلف عيون أصحابه، وأمامه عينا عصمت آغا المفتوحتان على سعتيهما، سمع صوت أحد الرجال:

- لماذا يا حمد؟

وسمع صوت الآغا:

- لِمَ رجعت؟

- ...

ورجل من صحابته:

- لِمَ اخترت الموت يا حمد؟

ردّد مع نفسه:

- أيّ إنسان أكون لو رأيت نفسي حسب.

تقدم عصمت آغا بخطى وئيدة، صفعه بشدة وهو يصرخ:

- تحب الموت إذن؟

أجاب بصوت نافذ:

- بل أحب الحياة.
- وقد تمكّنت من نيلها.
- ليس لوحدي.

ثم استطرد بثقة:

- مصيري من مصيرهم.

وتراجع حمد قاصداً الرجال، قاموا إليه، قبلوه بحرارة، تلاصقوا، اتحدوا في قالب واحد، حتى القلوب تموسقت دقاتها في رنّة واحدة، أصبحوا جسداً واحداً، حلقت أرواحهم في الهواء ثم تمازجت في كيان واحد، كل الرؤوس المعفرة بوعثاء السنين العجاف، وكان الجسد الواحد المتّحد يحدّق بعيون كأسنّة النار نحو أنامل بيضاء راجفة تحاول بجهد عصيّ أن تحمل البندقية.

جدّي يقول: رقصنا معهم حتى الفجر

والنار فاكهة الشتاء، وبدونها لا تـــدوم المســـاءات، لا تنـــهزم الأرواح خائفة مذعورة وتنزوي العجائز مقرورات في زوايا البيـــوت وفي عيونهنّ ثمة برد وزمهرير يتجنّبن إلحاح الصغار في طلب حكاية أو قصة عن الشاطر حسن، أو عنترة، أو الحمار الذي صـــار حكيمـــاً، وبدون النار لا نتسامر عند حميد البستاني، النار، النار، النار... والنـــار بحاجة إلى حطب، والحطب عند مفاوز الجبل، والجبل يريد من يصرعه ويلويه، وليّه يحتاج إلى رجال، والرجال بحاجة إلى الدوابّ... الدوابّ موجودة، والرجال موجودون، والهمّة فولاذية، وفصل الخريف علـــى الأبواب، إذن... في بداية سقوط أوراق الأشجار، كنا نهيئ الحمـــير، قطيع كامل من الحمير، وعادة ما كنا نحتطب معـــاً، أنـــا والخـــلاّن؛ يوسف، يونان، فاضل، داود، حاتم، وجمعة. نستيقظ مع الفجر بعد أن نكون قد تزودنا بزوّادة خمسة أيام أو أسبوع علـــى أكثـــر تقـــدير، والزوادة غالباً ما تكون "بقجة" كبيرة من خبز الرقاق المطوي، والتمر، والبيض، والراشي[1]، وكيس كبير من "التتن" الكوردي، وكل لوازم السفر... ثم نبدأ الرحلة، يستقبلنا الخان القديم المتداعي النائم بإعيـــاء كرجل يحتضر على سفح تل صغير نسجت عنه الحكايات، فمن قائل بأنّ ثمة تحته مدينة آشورية قديمة، ومن يدّعي وجود كنز من الـــذهب، فلا غرابة إذن من أنّ وجود الحفر الكثيرة المتوزعة على جنباته هي من

(1) الراشي: مستحلب بذرة السمسم.

فعل يد الإنسان، دفعه الطموح أو العوز إلى التل، عسى أن يزداد ثراءً، أو يطعم أفواه أطفاله المتضوّرة جوعاً... عند هذا الخان الـــذي يبعـــد مقدار مشي نصف نهار كنا نحطّ الرحال في أول يوم من الرحلة ونبيت ليلتنا في إحدى غرفه المتداعية الموحشة ثم نشق طريقنا نحو جبل الشيخ متى(*) فجر اليوم الثاني حتى نصل سفحه في الظهيرة فنقـــف للغـــداء، وبعد أن نستريح قليلاً نشرع بصعود الجبل فنبلغ قمتـــه في الغـــروب، حيث نتجه إلى أحد غيرانه آملين بقضاء الليل فيه، وبعـــد أن نعلـــف الحمير ونربطها جيداً نتجه إلى الغار وننيره بشمعة صغيرة ثم نبـــدأ أوّل فصول الرحلة، عشاء دسم قوامه الديكة المسلوقة وخبز الرقـــاق... ثم نبدأ فجر اليوم التالي المرحلة الثانية التي تستغرق عادة من يـــومين إلى ثلاثة أيام، وهي الانتشار في شعاب الجبل قاصدين الغابات الطبيعيـــة التي تعجّ بأشجار الصنوبر والجوز والزعرور والبلـــوط، فنعمـــل مـــن الصباح حتى المساء في قطع الأغصان وجني الثمار من دون اعتـــراض من مالك أو صاحب لأنّ مالك هذه الغابات المتعـــددة هـــو البـــاري تعالى، والله جلّ جلاله لا يعارك الإنسان أبداً... وبعد أن يتم تحميـــل الحمير بأخشاب الصنوبر والبلوط وتمتلئ "الهكبات"(**) بثمـــر الجـــوز والبلوط والزعرور، نشدّ الرحال راجعـــين إلى (ب) والفـــرح يغمـــر جوانحنا وثمة في عيوننا تمور صور سهرات حافلة بحكايـــات جـــدّاتنا الساحرة وهنّ يتحلّقن حول نارٍ مستعرة في المواقد وفي وجوههنّ تعجّ الآلاف من الحوادث عن الأنس والجن، والنساء، وفي بؤبؤهن ذلـــك الشراع الذي يدعو إلى الإبحار في جزر بعيدة.

(*) جبل الشيخ متى: يقع جنوب شرق الموصل.

(**) الهكبات: أكياس كبيرة من الجلد توضع على جانبـــي الحمار.

وفي خريف ما...

ونحن في رحلة العودة، وكان الوقت لـيلاً، منتصـف الليـل تقريباً، ونزولاً عند رغبة إسماعيل، الذي علـل إلحاحـه إلى إيفائـه بالوعد في الحضور قبل يوم على أقل تقدير من زفاف خلـف ابـن عمه، وطئنا مشارف الخان المتداعي، ولما أدركناه وقفنـا مبـهوتين والدهشة تعقد ألسنتنا، كانت (ب) عن بكرة أبيها عند الخـان، ذاك أبـي، وهذا شاكر، وهذه حسنية وتلك زهرة، هؤلاء هم جميعـاً، كل هؤلاء الأوادم، ماذا جرى؟! قام الزمّار والطبّال، فأخذ الزمّـار ينفخ والطبّال يدق، وانعقدت حلقة دائرية كبيرة مـن الدبكـة... صرخت مذهولاً:

- عرس!

هتف يوسف:

- أهذا حلم أم علم؟

قلت والدهشة رداء يرتديني:

- (ب) كلها عند الخان.

وبعد برهة استطردت:

- ولِمَ الخان؟

تابع داود:

- والدنيا منتصف الليل!

قال حاتم:

- عرس من يا ترى؟

قال جمعة:

- أيكون عرس خلف؟!

ولمحنا خلف يأتينا من عمق الحلقة، وكان وسيماً حليق الوجه، يرتدي صاية نظيفة بيضاء، ودميراً[1] أزرق، وعلى رأسه عقال رفيع أسود فوق كوفية بيضاء، كان باسماً، وعلى سيماء وجهه فرح طافح وهو يفتح ذراعيه محيياً...

- مفاجأة، أليس كذلك؟

- نعم.

قال في اعتذار حقيقي:

- إنها رغبة أبـــي، صمّم أن يكون العرس عند الخان.

ثم أخذ يقبلنا بالتتابع، وبعد أن انتهى قال:

- تفضلوا... فالعرس لا يزال في أوله.

وانصهرنا في دوامة قاتلة من القبلات والعناق، أنشأت النســـوة يزغردن تحية لنا، ونحن مأخوذون لا زلنا من الموقف المفاجئ. أعدّ لنا مكان الجلوس، فجلسنا نجيل أعيننا في الحاضرين، لمحت أبـــي يجلس على مقربة مني فرفعت يدي محيياً ووضعتها على رأســـي، فابتســـم كعادته ثم وضع كفه على صدره كعادته، وبعد فينة وجيـــزة أتـــى خلف وجلس بيننا وأخذ يحدثنا كلاماً عادياً عن مستلزمات العرس، وأطال في وصف الزفة وما جرى من هزّ الأبدان منذ خروجهم مـــن القرية وحتى مشارف الخان، حيث رقص الرجال بالسيوف والعصيّ، وتسابقت النسوة في الزغاريد والغناء فيما كان هو وصبرية، كل على صهوة حصانه يحدق أحدهما في الآخر بنظرات الوله والحب، وانفرد أحد الحاضرين - على ما أذكر سالم - وسالم هذا رجـــل ســـاذج

(1) الدمير: يشبه الجاكيت ويلبّس فوق الزبون (قطعة الملابس الرئيسية الـــتي تلف الجسم ومفتوحة من الأمام، وغالباً ما يكون فضفاضاً.

سمعت عنه حكايات كثيرة تبعث على الضحك، ولكن واحدة منها كلما أتذكرها أستغرق في ضحك متواصل حد الاختناق، فبينما كان سالم في إحدى الليالي عائداً من الموصل وهو يمتطي حماره وقد وضع أمامه باباً خشبياً صغيراً ابتاعه من الموصل، فإذا به في جوقة من اللصوص، فما كان منه إلاّ أن نزل عن الحمار وأنزل الباب وأوقفه على طوله ثم أقفل مزلاج الباب، وصاح بظفر:

- لقد أقفلت الباب أتحداكم أن تسرقوني.

فما كان من اللصوص إلاّ أن أغربوا في الضحك، ثم تركوه وشأنه في غناء موالٍ حزين عن شاب تركته حبيبته وهربت مع فارس مجهول نزل القرية في يوم ما، ثم غادرها هارباً مع الفتاة، تاركاً قلباً ثاوياً مثلوماً لا تداويه الأيام، فطرب القوم، وعمد بعض الشباب إلى البنادق وثلموا الهواء بالرصاص كرد فعلهم الحادّ مع الموال، فيما رفع الكهول عيونهم ثمة فيها شوق إلى أيام خلت، فطلب بعضهم الدبكة، هتف خلف:

- يا أهل (ب) هذه الدبكة ستكون على شرف جمعة والرجال.

ثم قال موجهاً كلامه للزّمار:

- نريد نفخاً شيطانياً.

هز الزّمار رأسه، وسرعان ما انعقدت الحلقة، كانت الألحان تنيخ أذني وتتعمق إلى نقطة بعيدة في رأسي فأحسّ بأنني خفيف وقد أوشكت على الطيران فيما كانت الحرارة أو النار اللذيذة التي تهرس أحشائي تدفعني إلى المشاكسة، فأدقّ الأرض بقوة ثم أقفز طائراً في الهواء كطير فلت من أساره.

* * *

همسة انبثّت من داخلي:

- هل هذا شكّ، هل هو اليقين؟ إنها لينة، مثل ريش العصفور، مثل وسادة من ريش، ولا أثر للعظام بها، أمسك بالكف جيداً. أتحسسها بين أصابعي، مثل بالونة تنضغط لينة طائعة، تذكرت قول أبي... وإذا تجسدت فإنها تكون لحماً على لحم لا عظم لها.

رفعت عيني نحو الوجه المنتصب على جانبي وحدقت إليه، جلد ناعم مثل المرأة، حاذرت أن لا تبدر أية إشارة مني تشعرهم بأني أحسست بحقيقتهم رغم أن اليقين لم يتحقق، فكّ كفه من أسار كفّي المتصلبة، فكرت بأبي ثانية وهو يقول:

- إنها تحاول دوماً أن تترك أثراً لديك، والآثار المفضّلة لديها هي طبع كفها على ثيابك.

راقبت اليد التي تسلقت ظهري، اليد اللينة الملساء، ثم استقرت على ظهري تحت كتفي تماماً، وأحسست بثمة ضغطة خفيفة على ظهري، فالتفت إلى يميني وهمست بأذن فاضل:

- فاضل... هيا بنا.
- إلى أين؟
- إلى (ب).

فهتف بحبور:

- ونترك هذا العرس الرائع؟

حاولت أن أفصح عن شكوكي، ولكني أحجمت حين اشتبكت الكف اللينة بكفي فقلت:

- ولكني متعب.

همس غير مصدق:

- ما هذا يا خضر...؟

- صدقني إني دائخ!

- إذن استرح قليلاً...

يئست من فاضل، فحدقت صوب يوسف، رأيته في وضع مثل وضعي تماماً، فأشرت له برأسي فأومأ رأسه موافقاً، ثم انسلخ عن الحشد، وانسلخت أنا أيضاً عن الحشد، وأنا أدقّ قدميّ على الأرض، ثم عمدت إلى أحدهم واستللت العصا من يده وفعل يوسف كذلك، وانفرط عقد الدبكة والتفوا حولنا، أشرت بعصاي نحو الطبال لكي يزيد قوة الإيقاع ثم تقابلنا، أنا ويوسف في رقصة عنيفة، كان العرق ينضح من جسدي مثل ساقية، ضربت الأرض بقدمي وارتفع جسدي عن الأرض، أحسست لوهلة قصيرة بأنني سأبقى هكذا معلقاً في الفضاء، ولكني ما عتمت أن هبطت على الأرض وجهاً لوجه مع يوسف، فاقتربت من أذنه بحركة إيقاعية راقصة وقلت له:

- هيا بنا نذهب.

فابتعد عني بحركة خاطفة ووصل حد الجمع المتكوم في حلقة واسعة ثم استدار نحوي، وقوّم عصاه في الهواء ثم أدارها في حركة حول رأسه، وجاءني في قفزة جبارة وقال هامساً...

- أعرفت السر؟

قلت وأنا أبعد المسافة بيني وبينه:

- نعم.

واستدرت نحو الأصدقاء، كانوا يصفقون بحرارة، ولكني لمحت داود يصفق كمن يفعل شيئاً وفكره في شيء آخر، فاقتربت من يوسف الثابت في مكانه وهو يهز بدنه، فقلت له:

- لننهِ الرقصة إذن.

فقال:

- ونذهب.

***

وبعد أن عانقنا خلف قال:

- ولكنّ الفجر لم يطلّ لحدّ الآن.

قلت في تصنّع:

- اعذرنا يا خلف، فنحن متعبون.

فقال في رضى:

- حسناً، أنتم معذورون.

ثم قال:

- لا بأس يا صحاب، فأنتم تطالبونني في غداء خاصّ.

قال يوسف:

- بسيطة.

وبعد أن امتطينا جيادنا ومشينا بقافلتنا المهيبة، قلت لفاضل:

- فاضل... ألم تحسّ بخطأ ما؟

- من أية ناحية؟

فقلت له:

- في كل ما جرى!

قال:

- أتقصد العرس، لا... ولكن الخطأ كان في إلحاحكما أنت ويوسف في الاستئذان.

فقال يوسف مباشرة:

- فاعلم إذن يا فاضل، بأننا قضينا سهرة ممتعة مع الجن.

صرخ فاضل برعب:

- جن... أجننت يا يوسف؟

- بل كلنا كنا مجانين حين صدقنا بأنّ العرس في الخان العتيق.

- ما ضير ذلك إن كانت رغبة والد خلف؟

هتفت:

- أي خلف يا فاضل، خلف الآن يغطّ في نوم رخـــيّ مـــع عروسته في (ب) لا في أطلال الخان.

فقال في حيرة:

- وما جرى في الخان؟

قال يوسف:

- حفلة مع الجنّ.

ثم قال فجأة في انذهال:

- انظروا إلى الخان.

والتفتنا إلى الوراء، كان الخان ينغمس في انبلاج الفجر الفضّي، ولا أثر لأحد، كان الصمت يرتدي جنباته، ولكني قلت فجأة:

- أيها الأصدقاء، اخلعوا صاياتكم...

قال فاضل:

- لماذا...؟

- لنرَى الأكفّ...

- أية أكفّ؟

قلت:

- أكفّ الجنّ الذين راقصونا.

وفعلاً، كل من خلع صايته أخذ يحدق مذهولاً في شكل الكف المطبوعة على ظهر الصاية، ولما أفقنا من الدهشة قال فاضل وأسنانه تصطكّ:

- إذن كل هذا صحيح.

أجبته بلامبالاة:

- أصدّقت يا فاضل، بأننا راقصناهم حتى الفجر.

جدّي يقول: الكنوز خرافة

واعتدل المحتضر على ساعديه وحاول جاهداً أن يفلح في إنهاض جسده ولكنه لم يفلح، فاستكان لاهثاً على فراشه ثم قال:

- في الزاوية اليسرى من السرداب، تحت الكوّة تماماً...

ثم حدّق في وجه ابنه حاتم وأشهر سبابته وقال في صوت ذي نبرة واهنة:

- وعلى بعد ثلاث أذرع من الحائط عليك أن تحفر...

ثم قال بعد برهة تفكير:

- وعلى عمق ذراعين لا أكثر، ستظهر الجرّة، تكون فوهتها مسدودة بحجر صلب.

ثم تهدجت أنفاسه وهو يقول بحرارة:

- وأنت تزيح الحجر عن فوهة الجرة إياك أن تنظر مباشرة إلى ما بداخلها، بل عليك أن تنتظر قليلاً، ثم مد يديك لتحظى بالقطع الذهبية، أما إذا نظرت مباشرة فسينقلب الكنز إلى تراب.

وانتفض المحتضر بشدة، ثم أسلم الروح.

* * *

قال حاتم:

- ماذا تقولون؟

قال داود:

- الرأي رأيك...

أكمل حاتم مباشرة:

- أنا أرى أن نبدأ هذا اليوم...

فوافق الأصدقاء إلا أنا، فقد حاولت أن أصرخ فيهم أنّ الكنوز خرافة، أنّ الكنوز لا تأتي من الغيب، والكنوز ليست ذهباً أو سبائك، بل الكنز الحقيقي هو ما تملكه النفس من صفاء وسعادة، ولكني أحجمت عن الإفصاح عن رأيي، فتهيأت معهم عن دون قناعة، ونزلنا السرداب مع المعاول وبقينا نحفر طيلة العصر حتى المغيب ولكن لم يبن أيّ أثر لأيّ كنز، فأجلنا العمل إلى الغد، واتفقنا على السهر عند حميد البستاني، بعد فترة انقطاع إكراماً لخاطر حاتم برزئه بفقدان أبيه عن شيخوخة ضاجّة بالبحث عن الكنوز، والمنصهر حتى الثمالة بحكايا السلاطين الذين دفنوا كنوزهم في أرجاء الأرض أو حكاية المدن المحاصرة والتي حاولت أن تدفن كنوزها في الأرض لئلا تقع في أيدي الأعداء، أو تلك الخرافة أو المعتقد في أنّ (ب) مبنيّة على أنقاض مدينة آشورية فلا بدّ إذن من وجود بحور من الذهب تحت (ب)، وكان أبو حاتم من الذين قضوا جلّ أعمارهم في البحث عن الكنوز الموعودة، فكان يقضي كل نهاراته في الحفر، ومعظم لياليه في مطالعة كتاب ذي أوراق صفراء متآكلة الحواف، تاركاً أمور تمشية العائلة لحسنية أم حاتم، فقد كانت المسكينة تحصد وتزرع وتزّكي الزرع، وتدوس السنابل ثم تذروه، إضافة إلى عملها البيتي

العاديّ إلى أن كبر حاتم وشبّ فانتقلت أمور تمشية المعيشة إليه، تاركاً أباه في رؤاه وخيالاته عن الكنوز والمدن المطمورة في التراب، ولكن رغم هذا لم يكن من الضد في عمل والده أو في تفكيره، بل كان في داخله يأمل أن يعثر على كنز مفقود أو جرار من السبائك تحرسها أفاعٍ سامّة ولكن مباركة لا تلدغ من يأتي الكنز في أدب ودون طمع، ولكن لم يحقق أبوه الحلم، لم يعثر على الكنز، رغم أنه حوّل بعض الحقول أو التلال إلى حفر منتشرة ومتروكة إلى أن وافته المنيّة بعد أن اهتدى – مع نفسه بعد البحث والتقصي – أنّ الكنز الموعود ليس إلاّ في سرداب بيتهم حيث رآه في الحلم في الموضع الذي وصفه تماماً، وما عليه إلاّ أن يتبع تعاليم الطيف ويظفر بمبتغاه، ولكنه عندما استيقظ وجد أنه لا يقوى على النهوض وشعّ في داخله أنّ كل شيء انتهى ولا بدّ لهذه النفس القلقة التعبة أن تسافر إلى مستقرّها بعد هذا التطواف الطويل، وعندما وافته الساعة اجتمع إلى حاتم ووافاه بالسرّ ثم رحل تاركاً ابنه وفي داخله سعير محموم للبحث عن الكنز وكأن الروح النزفة العنيدة خرجت من جسد أبيه لتستقرّ في جسده.

***

– ولكني لا أزال عند رأيي، الكنوز خرافة.

قلت في تصميم، وعيناي تغوصان في الظلمة المتفشية في أحشاء السرداب باحثة عن الوجوه، كان الأصدقاء يجلسون على تل التراب المتكوّم على حافة الحفرة المكتوية بالضربات المتلاحقة من المعول المنتصب بين يدي جمعة، قال حاتم مستاءً:

- كفاك مناكدةً يا خضر.
- أنا لا أناكد يا حاتم، بل أقول الحقيقة...

قال في تذمّر:

- بدل أن تثرثر، انزل واحفر قليلاً.
- لن أفعل.

فقال:

- طبعاً، ابن أكابر، ابن كاتب في ولاية الموصل.
- لا ليست المسألة ابن أكابر أو غير ذلك، المسألة مسألة قناعة...
- أية قناعة؟
- بأنكم تحفرون بلا جدوى.
- والطيف لا يكذب.

قلت في صدق وحرارة:

- الطيف وهم، كل هذا وهم، وسترون.

فقال حاتم وقد أوغل في العناد:

- أتراهن؟

قلت في تصميم:

- أراهن.

فصاح إسماعيل:

- على خروفين للغداء...

هتفت بفرح:

- موافق.

ووافق حاتم أيضاً، فقلت مناكداً:

- عليك بتسمين الخروفين منذ الآن يا حاتم.

***

رأيتهم يجلسون أمام باب السرداب وقد أخذ التعب وطره، وجوههم وثيابهم معفّرة بالتراب، قلت لحاتم:

- مبروك.
- علام؟!
- الكنز...

قال حاتم في اعتراف:

- صدقت يا خضر.

قلت في مواساة وحب:

- ولكنك عنيد، قلت لك من البداية لا تتعب نفسك، ولكن دون جدوى، عنيد...

قال في تسليم:

- كسبت الرهان.

حاولت أن أسرّي عنه، فهتفت:

- لديّ اقتراح.
- ...!

قلت مؤكداً:

- ألم تسمعوني؟

قال إسماعيل:

- ما هو...؟
- كم حفرتم؟

أجاب حاتم:

- مقدار أربعة أمتار.

فقلت وأنا أحاول أن أبتعد:

- أقترح أن تواصلوا الحفر، قد يخرج الماء، فلا يضيع جهدكم، وتكونون قد فعلتم عملاً طيباً من دون أن تدرون.

وأسرعت في الركض متفادياً الحصاة التي أطلقها حاتم باتجاهي في حالة غضب حقيقي.

جدّي يقول: كانت حاملاً وضروعها مدلاة أسفل بطنها

من أعماق الليل الساجي المكتوي بأسياخ البرد الكانونيّ انبثق النداء:

- غانم... يا غانم..

نظر إليّ أبي وهمس متسائلاً:

- إنه صوت فرج، افتح الباب.

فنهضت نحو الباب، وعالجت مزلاجه الخشبي، وحالما فتحت الباب لمحت وجه فرج، كان في نظراته ضراعة وتعب وجوع، وفي بدنه رجفة أو ارتعاشة لا تنكر، قلت له:

- تفضّل عمو فرج، تفضل...

فقام أبي، وعانقه ثم أجلسه حول الموقد، تكوّم الرجل باندفاعة حميمية وكأني به يودّ أن يتوحّد مع الموقد، لمحت قسمات وجهه المشدود المسكون بانفعالات قاتمة، يتراخى ويتورد بفعل الدفء الذي تسرّب في عروقه، فعادت روحه وانتعشت نفسه وأراح كوعه إلى الوسادة كمن يفضي عنه تعب آلاف الدهور، قال أبي موجهاً كلامه إلى أمي:

- أعدّي العشاء.

ثم قال أبي:

- اجلب الماء لنغتسل.

ومن ثم اتجه بكليته نحو فرج، وسأل باشًّا:

- خيراً إن شاء الله؟

صعد القهر إلى وجه الرجل بغتة، واعتصرت شفتاه الكلمات:

- عصمت آغا.

صفق أبـــي يداً بيد كمتوقع كارثة:

- يا ساتر، ماذا فعل؟
- إنه يفني (ك) عن بكرة أبيها.
- لماذا...؟

حاول الرجل أن ينتزع الكلمات قسراً من شفتيه المتوردتين:

- بسبب كلبته.
- كلبة؟!

صاح أبـــي مندهشاً ومنكراً، وقد فتح فاه، فيما استطرد فرج:

- لقد نفقت كلبته المدللة أو قتلت، لا أدري، فجنّ جنونـــه، وخرج رجاله في الليل يطلقون على أي رجل يصـــادفونه، وقد قتل حتى ساعة هروبـــي ثلاثة رجال وامرأتين...

همس أبـــي:

- يا ويله من غضب الله...

وقال فرج:

- وقد جئتك قاصداً أن تقبلني دخيلاً عندك...
- حياك الله يا فرج... البيت بيتك.

وبعد أن تعشّى واستراح، سأل أبـــي فجأةً:

- غانم، لماذا لا تشرح أمرنا على الحكومة في الولاية، أنـــت منهم ويسمعون كلامك...

فقال أبـــي وضحكة عاجزة ساخرة تتملكه:

- أية حكومة فرج، أية حكومة، هؤلاء جوقة حرامية.

ثم سأل فرج:

- أتدري من هي الحكومة؟

قال فرج عاجزاً:

- أنا سألتك.

- وأنا أجيبك، أن الآغا هو الحكومة.

فهمس فرج بإعياء:

- والحل؟!

- أن ترحل عائلتك تحت جنح الليل.

قال فرج بإعياء:

- إلى أين؟

- أرض الله الواسعة...

***

وعندما اجتمعت مع الصحب عند البستان سردت لهم الحادثة باقتضاب، ثم ومع استمرار المرح، أنشأت أسهب في الحديث عن الحادثة وأخذت أخوض في التفاصيل الدقيقة للمجزرة وكأني فعلاً عاينتها بدقائقها، وكان الصحب صموتاً وكأن على رأسهم الطير، وعندما انتهيت سمعت يونس يقول موجهاً الكلام إلى داود:

- ألم أقل لك يا داود لا تفعل؟

فهتف داود:

- ولكنها كادت تعضني، بل كادت تأكلني...

ففتحت عينيّ دهشاً وتساءلت بحيرة:

- عمَّ تتكلمان؟

يبدو أنهما لم يسمعاني فأمعنا في اللجاجة:

- ولكن الحبة تصبح كبة.

فصرخ داود باستياء:

- وما أدراني أنها كلبة عصمت آغا.

فهتفت مع بقية الصحب:

- عصمت آغا!

ثم أمسكت يونس من تلابيبه وهززته:

- أتقصد... أنتما... داود.

- نعم يا خضر.. داود قتلها.

فاندفع داود مدافعاً:

- ما قتلتها إلاّ بعد أن أيقنت أنها ستقتلني...

فهتف به يونس:

- ولكنك لجوج.. قلت لك دعها...

فقلت بصوت حازم:

- كفاكما عراكاً وصراخاً، اجلسا الآن، وأخبراني.

ففعلا، انزوى داود قرب حميد الستيني، وجلس يونس قبالتي فقلت له:

- ما الذي حدث يا يونس؟

التقط يونس أنفاسه المتسارعة وقال:

"أول من أمس خرجت من البيت وكلّي ضجر، وعزمت على السهر عند العم حميد، وأخذت أتمشى وأتنشق عبير الورود المنتشرة

في فضاء القرية. ولما حاذيت بيت داود لقيته يجلس على دكة طينية بجانب الباب فسألته أن نتمشى فوافق، وسلكنا طريق (ك)، حكاية مني وحكاية من داود، لم نجد أنفسنا إلا إزاء قصر منيف تحيط به بيوت طينية متناثرة، فقلت لداود:

- لقد سرقنا الوقت.
- بل قل سرقتنا الأحاديث.
- أين نحن الآن..؟
- أتتغابى؟!

قلت له في صدق:

- لا صدقني.
- إنها قرية (ك).

فاستنتجت شيئاً فاستطردت:

- وهذا قصر عصمت آغا.
- إنه هو...

فقلت في عجب:

- ما أبهاه...

أجابني داود:

- من تعب الفلاحين.

وكان الكلام بيننا عادياً على هذه الشاكلة، أنا أسأل وهو يوضح، أو هو يسأل وأنا أجيب، حتى - وبغتةً - لمحنا كلبة تتمشى وثمة سلاسل تجرّر وراء أرجلها الخلفية تنتهي بطوق على عنقها، كانت الكلبة تمشي عرضاً دون أن تلمحنا، ويبدو أنها كانت مربوطة وقد فلتت من أسارها، وفجأة تحرش بها داود، ألقى عليها حصاة،

فأتتنا طائرة مكشّرة عن أسنان حادّة نضيدة، كانت بالغريزة – ربما – تعرف أنّ داود هو الذي تحرش بها، فجاءت مثل الصاعقة وقفزت في الهواء تجاه داود، فاستلّ على عجل مديته، وشق – وبلمح البصر – بطنها وهي تهبط فوقه، فاندلعت أحشاؤها على التراب وافترشت الأرض تئنّ مثل أم فقدت وليدها، وعندما أغمضت عينيها في نزعها الأخير لمحت انتفاخاً ظاهراً على بطنها، كانت حاملاً وضروعها مدلاّة أسفل بطنها...).

***

كان داود منزوياً ومتقنفذاً داخل جسمه يبتلع اللوم والتقريع، وهو لا يفتأ يهمس:

– لم أكن أعلم...؟

وفجأةً هتف حميد الستيني:

– حصل خير يا أولادي.. حصل خير.. لم يكشفكما أحد..

فقال يوسف في حدّة:

– والناس الذين قتلهم الآغا؟

أجاب حميد البستاني:

– سينتقم الله لهم...

فهتف يوسف:

– ولكنه طغى..

– وليسوا أول الضحايا.

قال يوسف بحرارة:

- إن هي إلا كلبة، حيوان، أتقتل أرواح خمسة من أجل كلبة...؟!
- والقصد؟

فهدأ يوسف وأنشأ يحدق إلينا بالتتابع، ولما وصل إلى حاتم هتف هذا بلذة المكتشف:

- لا يستشفّ أغوارك إلا أنا يا يوسف.
- وهل فعلت؟

سأله يوسف، فأجاب حاتم:

- أجل.
- فلا تفصح به إذن.
- لن أفعل، ولكني أوافق على رأيك.

ثم التفت يوسف إلينا وقال:

- اسمعوا يا صحبي، أنا قررت شيئاً، هل توافقوني...؟
- فيم...؟
- قررت أن ننتقم لكل ضحايا عصمت آغا.

صرخ فاضل:

- أتقصد...؟!

أجابه يوسف بهدوئه المعهود:

- نعم، يا صحب، يجب أن يدفع الآغا ضريبة دماء ضحاياه، يجب أن يموت.

فهتف حميد البستاني محذراً:

- ولكن يا يوسف، حاذر، إنك تحرث في البحر...

فنظر إليه يوسف وهمس:

- يا عم، إن هذا الظالم يقتل الناس مثل الأغنام، صحيح أنـــه بعيد عن (ب) ولكنّ أذاه طال (ب) أنسيت يونس ونجم، إضافة إلى أنّ ضحاياه في هذه الجريمة الجديدة كانت بسبب خطأ من أهل (ب).

وقاطعه حميد قائلاً:

- دعوا (ب) تعيش بطمأنينتها يا أولادي...

أجابه يوسف:

- لا تخف يا عم سنقتله بحيث لا يعلم بنا أحد.

ثم قال لنا:

- ماذا قلتم..؟

وأخذنا نتقافز حول الموقد مثل الشياطين.

جدّي يقول: لم يظهر الصلوغان تلك الليلة

قال حاتم:

- ماذا تحسب نفسك؟

كان الغرور في تلك اللحظة ملكاً متوجاً في عـــرش رأســـي، فأجلت عينيّ الثقيلتين أحدق في الصحب المفترشـــين أرض الغرفـــة، يحدقون في حميد وهو يديم نار الموقد، وأجبت حاتم بثقة:

- ما خلق خضر لكي يخسر..
- ولكنك ستخسر هذه المرة.

قلت في تشفٍّ:

- لا يا حاتم، لن تستطيع أخذ ثأر الخروفين.

فقال في ثقة المنتصر:

- هل أشرط إذن..

فقلت في خيلاء:

- حتى لو على خاتم سليمان.

فقال في لهجة حارّة:

- لا، لن أطلب منك البحث عن خاتم سليمان، بل طلبـــــي هو أن تذهب إلى المقبرة وتضع هذه القداحة على شـــاهدة أحد القبور، كعلامة إثبات.

فقلت وقد أحسست بالمطبّ الذي وقعت فيه:

- في هذه الساعة...؟

- في هذه الساعة يا خضر...

وفكرت... تباً لك أيها اللسان الملعون مـــا أكثـــر ثرثرتـــك، طارت الخيلاء من رأسي وصحوت تماماً وأخـــذت أجيـــل النظـــر فيهم، لمحت سيماء الظفر طافحة على وجه حاتم، والتـــوجس علـــى وجه جمعة، والتأمل في عيني يوسف، وحباً في نظرات حميد، همـــس حاتم:

- هل توافق أم تعلن الانسحاب.

فقلت وقد فارت الحميّة في رأسي:

- ما خلق خضر لكي يخسر.

فقال حاتم، وقد طار الظفر من وجهه:

- والشرط؟

- خمسة ديكة حبشية مشوية.

فقال حاتم:

- زائد، ناقص.

قلت في تصميم:

- عشرة ديكة.

فاستطرد حاتم:

- لا بل أربعة.

فقلت في ظفر حقيقي:

- موافق.

***

الومض البارق المنبثّ من الحالق الموغل في البعد، يشمل الكون بطوقه الساطع للحظة قصيرة ليضيء القرية والبساتين والجبل والصمت المطبق يكللها وكأنها جوقة من الملائكة، أو تماثيل صاغرة صافنة، والمطر ينثّ ناعماً يبلل وجهي ويشيع فيه انتعاشة لذيذة، أحثّ خطواتي مجتازاً الزقاق المفضي إلى الساحة التي تنتهي بسياج المقبرة، لقد طارت الشجاعة من رأسي تماماً، واستجليت في ذهني أبعاد المطبّ الذي وقعت فيه، فكرت.. ملعون حاتم، لقد عرفت مكمن الضعف فيّ فحاولتَ أن تختصر المسافة لنيل المبتغى وضرب عصفورين بحجر واحد: الرهان، وإثبات خوفي من المقبرة و... الصلوغات، وتناهى إلى ذهني كلمات خميس وهو يقول باهتمام:

- شيء لا يصدق، عملاق هائل لا تستطيع مهما رفعت من طرفك أن تطأ نظراتك قمة رأسه، له عيون عوراء يشدها بعَصَابة سوداء، يغطيه الشعر من قمة الرأس حتى أخمص القدمين، شعر أسود كريه، ساقاه طويلتان جداً، إحداهما وراء كرمة الزيتون والأخرى خلف المقبرة، وإذا دققت النظر في وجهه جيداً، تجد عيناً تقدح جهنماً، وفماً طويلاً تتدلى منه أنياب حادّة كالسكين.

أحاول أن أتماسك، أشعر بأني أمسيت مثل قشة يتلاعب بها الريح والمطر، تتصادم ركبتاي لأكثر من مرة وأنا أناضل جاهداً أن أتماسك أهمس بابتهال حقيقي:

- يا كابس الجانّ..

فأشعر بنوع من الطمأنينة تتسلل إلى نفسي فأنقل خطواتي مجتازاً الساحة الفسيحة، برقت الدنيا، بانت (ب) أمامي والمطر يصفع بيوتها

الحجرية مثل عذراء تغتسل بطهر حقيقي ناشرة جدائلها في الفضاء، وعندما أطبقت العتمة ثانية، تعملقت صورة خميس أمامي.

- وهو عادة لا يظهر إلا في الليالي الجهمة والممطرة، حيث تكون الريح والمطر، والعتمة والبرد، مربع الوجود، في تلك اللحظة يبرز وكأنه من دخان أو من قطرات المطر ويا ويل الذي يقع بين يديه في تلك الساعة.

ارتعدت فرائصي وكدت أقع وقد تيبس حلقي، لذت بالدعاء وقوّيت شكيمتي وتقدمت، فكرت؛ ليكن، ليأت، ليمزقني، ولكن لن أهزم، لا لن أنهزم بحاتم، فامتلأت نفسي بنفحات من الثقة والشجاعة، وبغتة ظهرت المقبرة أمامي مثل طلل دارس هجره الحبيب وأهل الحبيب، فمددت أصابعي نحو جيب الدمير، وأخرجت القداحة.

- ولكن لِمَ يسمى الصلوغات، ومن أين جاءت تسميته؟

قال خميس:

- لا أدري، ربما لكونه على تلك الصورة من البشاعة.

قلت في خوف وتوجّس:

- يا ساتر.

فاستطرد خميس بحرارة:

- هل تخافه؟

- من الوصف، لا أخافه فحسب، بل ستخمد أنفاسي في الحال لو تهيّأ لي أن عاينته.

فقال خميس:

- أما أنا فلا أخافه.

فأجبته في مماحكة:

- طبعاً عنتر لا يخاف الجنّ والأنس.

فأجابني بصدق:

- لا عنتر ولا هم يحزنون، ولكني مؤمن.

ثم علمني دعاءً يطرد الشياطين، فتلوته وأنا أضع المقداحة فوق شاهدة أحد القبور، وولّيت وجهي قاصداً (ب)، بخطىً ثابتة.

***

- هذه هي.

وأشرت بسبابتي نحو القداحة المستلقية على الشاهدة، لمحت علامات الانهزام على وجه حاتم، ولكني قلت فجأةً:

- أشكرك يا حاتم.
- تشكرني على ماذا، ها، الديكة المشوية.
- لا يا حاتم، ليس من أجل هذا، فنحن إخوة، نمزح فقط، ولكن شكري على شيء آخر.

فقال في دهشة:

- ما هو...؟
- لقد طردت من داخلي إنساناً كان يخاف من وهم اسمه الصلوغان[1].

(1) الصلوغان: هو اسم للجن في بعض قرى شمال العراق.

جدّي يقول: في الفجر انتهى كل شيء

طرق سليمان الباب، طرقات منتظمة، وهو يتصـــنّع الصـــرامة وأنامله تفتل شاربه الطويل الكثّ المزيف، جاء صوت رجـــل مـــن الداخل:

- من...؟

هتف سليمان بلغة تركية سليمة:

- الجندرمة.

فسمعنا – من وراء الباب – صوت الرجل المرتبك:

- حاضر... حاضر.

ثم انفتح الباب على مصراعيه وبان من ورائه وجـــه الحـــارس الناعس والمسكون بالذهول، قال في احترام جمّ:

- تفضل أفندم.

وتقدم الحارس نحو فناء القصر، ثم وقـــف واســـتدار صـــوب سليمان وقال في اللهجة المؤدبة نفسها:

- أأوقظ رئيس الحرس؟

فأومأ سليمان برأسه في هزات غبية وقال:

- مضبوط... مضبوط.

وقبل أن يبتعد الحارس نحو إحدى الغرف، ناداه سليمان:

- اجمع كل الحراس.

فقال الحارس:

- حتى حراس الآغا؟

فهز سليمان رأسه:

- تمام... تمام... حتى حراس الآغا...

وبعد أن غاب الحارس استدار سليمان صوبنا، وهتف:

- ها ما رأيكم؟

أجابه يوسف:

- جيد، جيد، ولكن علينا أن نكون حذرين أكثر...

ثم أضاف بعد برهة:

- الهجوم، يجب أن يكون كالصاعقة...

فقال يونس:

- بل أسرع من الصاعقة، وسترى..

ثم استطرد كالمخبول وهو يلصف عينيه:

- يوسف، أتسمعون ما أسمع؟

قال داود:

- نعم، أنا أسمع نقيق الضفادع.

فهتف يونس بحنق:

- أية ضفادع، أية ضفادع..

ثم قال بعد برهة صمت:

- إنه صوت الدم..

فقلت وأنا أحاول أن أخفف عنه، كنت أعرف أن يونس في حالة خاصّة الآن، وأنه يصوغ أمامه صورة موت عصمت آغا قاتل يونس الأب.

قلت له:

- أبشر يا يونس، سنلبّي صوت الدم..

فرشقني بنظرة حب وشكر، ثم انتبهنا جميعاً إلى الرجال القادمين من عمق الليل والقصر، كانوا حوالى عشرة رجال محملين بالبنادق والسيوف ويمشون على نسق عسكريّ منظم، يقودهم عملاق هائل الجسم، وعندما وصلوا إلينا تقدم من سليمان وأدى له التحية العسكرية، ثم قال بصوت يشبه قرع الطبول:

- خيراً إن شاء الله أفندم؟

فتنحنح سليمان ومخط بصوت مسموع ثم زفر الهواء وقال:

- خيراً.. خيراً..

وبعد لحظة من الصمت قال سليمان وهو يضفي نبرة احتفالية في صوته:

- جئنا عصمت آغا بأمر هامّ من مولانا والي الموصل...

فقال رئيس الحرس:

- هل نوقظ الآغا؟

فقطع عليه سليمان:

- ها، لا... لا... لن نزعج الآغا الآن، الصباح رباح.

ثم قال:

- الآن نريد أن نرتاح قليلاً.

فاستدار رئيس الحرس نحو حرّاسه وخاطبهم:

- خذوا الضيوف إلى غرفكم وأكرموهم..

ولكن سليمان قال في صوت ذي نبرة آمرة:

- بل لنبقَ جميعاً معاً، ندردش حتى الصباح. فالفجر أوشك أن يبزغ..

فأجابه رئيس الحرس بأدب جمّ:

- كما تشاء أفندم.

وحالما دخل رئيس الحرس بصحبة سليمان إحدى الغرف، وحرسه بصحبة الرجال وقد وضعوا أسلحتهم في الخارج حتى بدأت ساعة التنفيذ.

***

صحيح أنّ الذكاء يغلب القوة، وصحيح أيضاً أنّ الذكاء وحده لا يكفي ولا يفي الغرض المرتجى، وكذا الأمر بالنسبة للقوة، ولكن إن اجتمعت الصفتان فلن يكون هناك أيّ مستحيل يقف بوجهيهما، هكذا كان أمرنا مع الحرس الأقوياء، نعم الذكاء والحيلة انطلت عليهم، ولكن هذا وحده لا يكفل التغلب عليهم ما لم يتآزر مع القوة، وهذا ما فعلناه مع الحرس، فما إن أصبحوا في الداخل حتى هرع جمعة ويونان وحاتم نحو البنادق خارج الغرفة، مثل البرق، أو بلحظة أسرع من الثانية، كانت البنادق مصوّبة نحو الصدور العشرة، ألجمت الدهشة الوجوه الصاغرة، وهي تحدّق في الحبال الملتفة حول أجسادها كأفاعٍ مميتة، وبعد أن ربطوا تماماً، الأيدي والأرجل والأجساد وكُممت أفواههم عدا الرئيس، قال هذا:

- من أنتم...!

فأسرع يونس بالإجابة:

- الدم.

هتف الرجل بغباء:

- ماذا؟

فقال يونس مستجلياً:

- دم القتلى.
- أي قتلى؟
- ضحايا عصمت.
- لم أفهم..؟

فقال يونس بصبر نافد:

- ولن تفهم أبداً.

ولكن يوسف تقدم من الرئيس المكبل وخاطبه بهدوء:

- اسمع يا هذا، أنتم لن تُقتلوا لأنكم مجـرّد دمـى يحركهـا عصمت آغا على هواه، ولا ذنب لكم في كل ما فعلتموه، رغم أنكم قساة القلوب، وأغبياء أيضاً، ولكن عصمت آغا روضكم كالبهائم، نعم أنتم لن تُقتلوا، بل حسابنا مع الآغا الظالم، ولكن قبل أن نغادركم أحذّركم من القيـام بـأي عمل فلا أمل لكم بالنجاة، لا أمل...

ثم أخرج ورقة ملفوفة من جيب دميره ووضعها في جيب رئيس الحرس وخاطبه:

- وهذه رسالة من عندنا إلى والي الموصل، أرجو أن توصلها إليه بعد أن يفك وثاقكم، وإذا سألكم عنا فقل لـه إنهـم يُدعَون الدم.

ثم استطرد بهدوئه المعهود ساعات الجدّ والعمل:

- وقل لهم وهذه أمانة في عنقك إنّ أهالي (ك) براء مـن دم الآغا.

فقال في تساؤل حار:

- من أين أنتم إذن...؟
- من هذه الأرض الواسعة...

يبدو أنه لم يصدق فاستطرد يوسف:

- لك الخيار في التصديق أم لا، ولكن ثق بأنّ أهـــل (ك) لا يعلمون عما سيحصل بعد قليل لسيّدك.

ثم قال وهو يستدير بعد أن كمم فم رئيس الحراس:

- على كل حال، دوّنت كل هذا في الرسالة إلى الوالي..

وأغلق الباب خلفه، أحكم رتاجه، وأوصى جمعة بالتيقظ.

***

- عصمت.. عصمت...

كان يغط في نوم عميق ملفوفاً بأغطية حريرية ناعمة فوق سرير حديدي عريض، والغرفة تتضوع بأريج البخور، كان يشخر بصوت عالٍ مثل ثورٍ أوغل في العمر عتياً، هزّه يونس وهو يصرخ:

- استيقظ أيها السفاح..

رمشت أجفانه فجأة، وكأن عقله اســـتوعب معـــنى الكلمـــة الأخيرة واستشف معناها، فتح طرفه بخوف وانفتحت أجفانه بسرعة وحملق في الوجه المنكبّ فوقه، سحب جسده بسرعة وحملق بشـــكّ نحو الوجه وهتف:

- من أنت...!

ثم شملنا بنظرة عجلى وتضاعف خوفه فانفلتت الكلمات مـــن شفتيه متقطعة:

- من أنتم، وماذا تفعلون في غرفتي.

فقال يونس بصوت كالجعير:

- نحن دم.

ولكن يوسف تقدم منه وقال:

- نحن رسل من العدالة...

فصرخ به عصمت آغا:

- أية عدالة...؟!

ثم صرخ ناظراً نحو باب الغرفة:

- حرس، حرس...

قلت له بهدوء:

- حرسك مكبّلون يا آغا...

فاتسع الفزع في عينيه وقال في مداهنة:

- ماذا تريدون مني؟

فقال يوسف بهدوء:

- أن نطبّق العدالة.

فقال الآغا وقد استنتج مغزى الكلام:

- أنا ما فعلت بكم سوءاً.

فصرخ به يونس بغضب متفجّر:

- بل قتلت أبـــي.

- من أبوك...؟

- يونس، يونس أيها السفاح، الذي فدى الأبرياء، ولكنـــك قتلته وقتلتهم.

- ولكن...

فتدخل يوسف قائلاً:

- وقتلت أناساً أبرياء لم يقترفوا شيئاً سوى أنهم كانوا ضحايا نزواتك الشاذّة الغريبة.

فقفز يونس وأمسك بياقة الآغا وأخذ يهزّه بهستيريا وقد تملّكـــه فرح طاغ:

- ستموت يا أفّاق، ستموت.

وقال جدي بغتة:

- لقد تعبت الآن يا بني، يكفي الآن..

فقلت وذهني حالق في تلك الأجواء السحرية لما يزل:

- وبعد ذلك يا جدي، ماذا جرى؟

نظر جدي في عينيّ مباشرة:

- لا تزال يا بنيّ على عهدي بك، لجوجاً تتعجل الأمور.

فقلت في حرارة وفضول:

- ولكنها حكايات جد رائعة، أرجوك يا جدي أن تحكـــي المزيد.

فقال في حسم:

- إني متعب، ولكني أعدك بأن أزورك ثانيةً، وأحكي لك عن حكايا أخرى.

فقلت في فرح:

- حسناً يا جدي، كما تشاء.

- والآن، أنا مضطر إلى وداعك..

فقلت في أسف وأنا أمدّ كفّي مصافحاً:

- كما تشاء.

فقال وهو ينظر الكف الممدودة:

- أنسيت أني غير محسوس.

- آه، لقد نسيت.

واختفى من أمامي كما ظهر في لحظة خاطفـــة، حـــدقت في المكان الذي كان يحتله بأسف، ثم عدت إلى أوراقي وأنشأت أقرأ ما خطّت يداي...

الفصل الثاني

النفق

نهود، بضّة وسمراء وحنطية، ريّانة ملساء وخشنة، تبرز بهَيَجان من ثنيات الأردية الممزقة، والنساء، عجائز وبنات، يتباكين بحرقة أليمة، ويتهالكن مستلقيات بإعياء وحزن يائس صاغرات والصوات ينسل من أفواههنّ كعويل الرياح الشتائية القارسة. وقوفاً كنا على أعتاب غيران الجبل، نعاين بعيون تتّقد غضباً عاجزاً أعزل، شباب القرية الصغار وهم يساقون عنوة مربوطين بحبل أحدهم تلو الآخر والحزن ينضح من عيونهم صحراء مديدة تسبح في الغلسة واللانهاية، والجندرمة ببناطيلهم القصيرة وجواربهم الملفوفة لحدّ أعلى الركبة ينظرون إليهم من علٍ باحتقار والسياط المشهرة بأيديهم تؤشر نحو الغرب حيث تغرق الشمس بإذلال ملتحفة أمواج الأفق الرصاصي الأخرس.

***

في ذلك الحول تآزرت ثلاث رحى لسحق أناس القرية، المختار بسطوته وظلمه ورجاله، الحرب، والقحط... ففي بداية تشرين بذرنا البذور في الأراضي المحروثة وانتظرنا الغيث في الإصباح والأماسي والليالي الطويلة، نخرج إلى العراء في الليالي ونعاين السماء بعيون متوسّلة، كانت النجوم تبرق كعيون الجن، فتغزو الغصة والخيبة حلوقنا وأفئدتنا، وعند الإصباحات أول شيء كنا نفعلهُ، رفع الرؤوس والتحديق... الشيء نفسه كما كل الصباحات، سماء زرقاء

وشمس مشرقة ولا أثر للغيوم، وهكذا كل صبيحة وعشية، حتى غدت معاينة الحالق جزءاً رئيسياً وحيوياً من ديدننا اليومي، ولما تقطعت نياط القلوب وطار الصبر، وكرت الأيام متسارعة، وأمحلت الأرض ونفقت بعض الحيوانات وجفت الساقية، وأصبح الرجال أكثر صمتاً من ذي قبل وكثر تذمر النساء وصراخ الأطفال، وتشدد المختار في حراستهِ على مخازن الحبوب، وكثر غلوائهُ وتهديدهُ وغطرستهُ كان لا بد من الحلّ، ووجدناه بعد حين.

***

ولما كانت الحرب قد وضعت أوزارها وسدّت منافذ الدنيا بوجوه الفقراء، تسابق الناس في خزن ما بقي من الحنطة والشعير في القوارير والجرار الفخارية ودفنها في الأرض تحت أرضيات الأكواخ، ومع الأيام وانشغال العيون المتطيّرة بالقحط المرتقب والتناقص المتسارع للمؤن المخزونة، وفي إحدى سهراتنا عند حميد طفح كيلي فصرخت في وجوه الصحب:

- ونبقى هكذا، نموت بصمت مثل الهوامّ؟

قال جمعة شبه يائس:

- ما العمل يا خضر، لقد هجر الطير سماء القرية، وتركت الحيوانات الأرض، ولم نعد نصطاد الجندرمة، ماذا نفعل...؟

فخرجت عن طوري وهدوئي وصرخت بغضب:

- ومخازن المختار؟

تساءل يونس بدهشة:

- ما بها..؟
- أتبقى على حالها...؟

استطرد حاتم بصوت هازئ:

- إنه يخزنها للأيام السوداء لكي يصبح سيد سوق الموصل.

تابعت بتلك الحماسة الأولى.

- ونحن...؟

قال يونس:

- علينا السلام.

وأكمل جمعة:

- أو علينا اللعنة.

قلت بإعياء:

- أو علينا الموت.

ثم استطردت بحماسة متقدة لا غلواء فيها:

- ولكن لا.. لا يا أحبة، لن نموت كلنا من أجل رجلٍ واحد.

تساءل حاتم:

- القصد يا خضر؟
- نفتح المخازن.

تساءل فاضل:

- ورجاله؟

وتوجّس جمعة:

- والبنادق؟

ولهج يونس:

- والموت.

صرخت بهم:

- لِمَ تتصوّرونني غبياً... سنحقق مآربنا ونحصل على مبتغانا يومياً دون أن يعلم المختار وزبانيته.
- كيف...؟
- اسمعوني.

***

ضربة أخرى، قوية، أمدّها كل قواه النابضة، همست:

- ها جمعة؟

صرف من بين أسنانه:

- سلخنا الثور ولم يبقَ سوى ذيله، اصبر يا خضر، إننا نكاد نبلغ الوطر.
- عجل بالله عليك فقد عيّل صبري.

وقاطعني جمعة بآهة فرحة حين ارتطمت النهاية الحادّة للمعول بسقف الحفرة، كان لارتطام النبلة بالطبقة الرقيقة من التراب التي تفصل بين الطبقتين صدى أجوف... ضربة أخرى وانفتح ثقب صغير أخذ يوسّعه بنشاط لا كلال فيه بالنهاية الحادّة المفلطحة للمعول حتى اتخذت الفتحة صيغتها النهائية، ثم أنهض جسده وهو يرتكن بمرفقيه على جانبي الفتحة من علٍ ثم تدحرجت قدماه إزاء وجهي معلقة في الهواء، هتفت وأنا أحسّ بصدري يتفتّق من الفرح:

- جمعة...!؟

سمعت صوته الملون بفرح ظافر:

- نجحنا.

هتفت بصوت متهدج:

- يعني...

استطرد بالفرح الغامر نفسه:

- إننا الآن داخل المخزن (X).

***

(**X**): كان كوخ جمعة ذا طابقين، الأول في بطن الأرض على شكل سرداب معتم تنثّ منه رائحة الرطوبة والعفونة وتسكنه الظلمة ليل نهار، والثاني كوخ يؤويه مع أمه الطرشاء العمياء، وكان كوخه آخر بيت من الطرف الشمالي من (ب)** وأقرب بيت إلى مخازن المختار. وبعد أن أتممنا مستلزمات الخطة واستطاع جمعة بحيلة نادرة من حيله (وقد عزّز كونه صاحب الكوخ في نجاح عملية تحديد الخطة في كونها تمنع أو تستبعد ريبة المختار وحرّاسه)، أن يقيس بعد المسافة بين الكوخ وأول مخزن، وحدد الاتجاه بدقّة، اتفق معنا أن نبدأ من الليلة فنقلنا معدّات العمل؛ المعاول والمجارف والأكياس الفارغة لنقل التراب وفرشه على أرض السرداب والكوخ إذا استلزم الأمر، وحينما صاح الديك معلناً انتصاف الليل بدأنا، وكانت الخطة أن نحفر نفقاً يبدأ من جدار السرداب ويمتد تحت الأرض بارتفاع قامة إنسان وهو منحنٍ حتى ينتهي في المخزن، ثم نبدأ بالعمل.. أنزلنا في الليلة الأولى من المخزن المحرر كيساً كبيراً من الحنطة وتولى فاضل وحاتم جرّه حتى السرداب، ثم قمت وجمعة بسحب كيس متوسط ووضعناه فوق الفتحة (ولحسن الحظ وحسب تقديرات جمعة

بالضبط، كانت الفتحة في الزاوية الجنوبية من المخزن حيث تتكدس خلفها أكياس الحنطة سادّةً بوجه الرائي من الباب مكان الفتحة أو حتى نصف قامة إنسان). وبعد أن أتممنا كل شيء وقُسم الكيس إلى حصص متساوية كان الديك يصيح معلناً فجراً جديداً، فانسللنا من الكوخ وكلٌ بمعيته حصّة أو حصّتين أو ثلاث، وبدأنا نضع أمام باب كل بيت من بيوت (ب) حفنة من الحنطة ونلتحف الفجر.

(ب)**: اسم قريتي التي ولدت فيها ودرجت بين أزقتها المتربة الوارفة وقويَ عودي بين أفيائها، تستلقي بوداعة العذراء على خضرة تنساح هادئة من التل في الشمال وتتدرج بهدوء متساوقة ومتناغمة حتى البساتين في الطرف الجنوبي، كانت قريتي تتميز بعذوبة أنسامها المشبعة بأريج القداح في الربيع وانبثاق حصارم الكروم في مستهلّ الصيف، التي تحيط ببيوتها المتناثرة والمتجمعة حول الساقية النابعة من الطرف الشرقي للجبل المطلّ على التلّ، والتي تروي الأشجار والبساتين في الصيف حين ينقطع الغيث، ونزرع على طرفيها وعلى امتداد قنواتها الصغيرة المحاصيل الصيفية مثل البطيخ والرقي والقثّاء والطماطم... إلخ. وبيوتها مشيدة من طابقين، السفلي – كما أسلفت – محفور في بطن الأرض يؤوي الأغنام والأبقار والتبن في الشتاء حيث البرد والأمطار، فيما يستعمل في الصيف للخزن.. والعلوي عادة يكون بيت العائلة، نظيف وبارد في الصيف – لكونه مبنياً من الطين الحرّ – وغالباً ما تلتصق بالبيت من أحد جوانبه غرفة طينية صغيرة تستعمل خمًّا للدجاج، فيما يقابله من الطرف الآخر، التنور حيث نصطلي بناره الوقّادة أيام الكانونين وليالي شباط وآذار الباردة ونقضي السويعات الجميلة متحلّقين حوله

طلباً للدفء والسمر.. أما بيت المختار فكان مبنياً من الجصّ والحجر الجبلي مشيداً بشموخ أرعن على سفح التل كغول جبار، فيما انتشرت تحته تماماً وعلى بعد رمية حجر مخازنه المبنية – أيضاً – من الحجر والجصّ ثم على جانبيها كان بيت الوكيل وهو من الطين، عدا إحدى غرفه الحديثة فكانت مشيدة من الحجر، ثم بيوت آل (ع) وكلها أكواخ طينية، كان أبعدها – وأقربها إلى المخازن – بيت جمعة، وعند التقاء التل بالأرض السويّة الممتدة بين البساتين من الطرفين كانت الأكواخ تمتد كشريط غير مترابط حول الساقية، وكان يقطنها آل (ت)، وشجرة عائلة القرية تقول إن الأخوين (ع) و(ت) أتيا من أطراف مدينة (ت) وسكنا هذا الموضع الجميل الحصين مع كرّ السنين تناسلت العائلتان وبنتا اللبنة الأولى لقريتنا العزيزة هذه.

***

المختار: لا يُعرف له أصل، فمنهم من يقول إنه يهوديّ مراب مطلوب، ومنهم من يقول إنه تركي، آثر لغاية في نفسه أن يخفي انتماءه ومنهم من يقول غير ذلك، ولكنّ شيوخ القرية الأفاضل يقولون إنه جاء وطلب إلينا السكن في الجوار فآذنوا له بروح الأخوّة والجيرة... في البداية تصرف بكل تعقل، خالط الناس، حرث الأرض وزرع كأي أحد منا، ثم كثر ثراؤه رغم أنه لم يكن يتميّز عنّا بالحاصل السنوي وأخذ يشتري الأراضي ويضمن المحاصيل ومثل حلم أو سكرة نوم أو موت، صحونا أخيراً لنجده قد أصبح المالك الأوحد لجلّ الأراضي والغنيّ الأوفر في (ب)، ثم أخذ يتزلف إلى الآغوات

الأتراك ويولـــم لهم الولائم والسُفَر إلى البساتين، حتى بلـــغ وطـــره وفاز بمبتغاه وعيّنوه مختاراً على القرية.

***

كان جمعة يحاول أن يسحب كيساً جديداً حين سمعت – وأنـــا في مكمني في النفق – صوتاً أحسسته صوت المختار:

– قف يا جمعة حيث أنت.

ودوّت إطلاقة يتيمة في سماء المخزن وسمعت صرخة جمعة المدويـــة ثم سقط جسده فوقي، حملته على كتفي وهرعت أنهب النفق بخطـــاي المسعورة، كان الجسد فوقي ساكناً وثمة برودة طاغية تسعر خدي حيث يرتكن وجهه، كنت أنشج مأخوذاً بالموقف الـــذي لم يـــدم ســـوى لحظات، قف، إطلاقة، صرخة موجعة، جسد سقط في النفق، وأســـدل الستار في لحظة واحدة وانتهى كل شيء، وصلت إلى فم النفق وهتفت:

– فاضل أنزله عن كتفي.

كان فاضل وحاتم ويونس ينظرون بعيون مخبولة غير مصدقة إلى الجسد الهامد على كتفيّ، وثمة صمت جلل يسبح في فضاء السرداب ويحيل الليل إلى صمت صلد طويل، أعانني فاضل في إنـــزال جمعـــة، وتهالكتُ على أرض السرداب وكياني كله يختضّ طلباً للهواء، كـــان فاضل في تلك اللحظة يضع أذنه على صدر جمعة وكلّه شوق وانتظار للآتي، نظرت إليه من خلال أهداب نصف منطبقة، رأيته يرتجـــف، كيانه كلّه ارتجف كعصفور مبلل وشفتاه تنفرجان وتنطبقان ببلاهة، والعينان زائغتان تتأمّلان الوجوه المنتظرة، و.....!؟

***

- كشف النفق.

صحا العم شاكر تماماً، ارتجفت عضلة بسرعة في صدغه واتسعت حدقتاه الناعستان وهتف بصوت عميق:

- ماذا..؟

- وقتل جمعة.

صاح بأمّ صوته:

- لا...!

وكاد يتهالك على الدكّة الطينية، ولكنّ وجهه - وبسرعة لا تصدق - اكتسى بتعبير لم آلفه سابقاً في وجه أيّ إنسان؛ أنسام وعواصف، حمل وذئب، انتصب كالعمود، وهمس بصوتٍ مفعم بالعاطفة المشبوبة بالصبابة:

- ليشملك الله برحمته يا جمعة، يا شهيد (ب).

ثم قال بحزم:

- أزفت الساعة.

قال فاضل:

- نحن آثرنا مشورتك يا عم قبل أن نتخذ أي قرار.

- بارك الله بكم يا أبنائي، ولكن ماذا قررتم؟

- ننتظر رأيك.

- كونوا على استعداد صباح هذا اليوم.

- والهدف؟

سرح في البعيد البعيد وقال:

- لم يعد له مقام بيننا، يجب أن يخرج من حياتنا.

تساءلت بفرح:

- وحتى بالقوة...؟!
- ولن أندم عليها يا خضر.

كدت أقفز على عنقه وأشبعه تقبيلاً ولكني آثـــرت أن أتمتّـــع بالجذل لوحدي.

***

وبعد أن أنهى خطبته الطويلة والتي أطربتني حتى العمـــق قـــال بحماسته المعهودة عندما يتكلم عن (ب):

- إنّ (ب) يا أحبتي مثل عذراء يدنّسها الأفّـــاقون فيحـــتم إذن أن نطهّرها مـــن المختـــار وزبانيتـــه ويقينـــاً أن الله معنا.

ورشقت الرجال الواقفين بطرف عيني، انهزم الخوف والتردد من دواخلهم وتوارى في أديم الهواء وارتسم في مآقيهم فـــارس مطهّـــم يعتلي فرساً شهباء تطير فوق الجبال. وخرج شاكر إلى فناء الســـاحة وخطب في الجموع:

- نحن لا نبغي الحرب، ولكننا دعاة حق.

ثم التفت إلى يمينه حيث تتجمع النساء والبنات وقال:

- وأنتنّ يا بناتي وأخواتي، على عاتقكنّ واجب إن لم يكـــن أفضل مما هو مطلوب من الرجال فهو يوازيه، كلّ مـــنكنّ لتحمل كوزة ماء وتتبعنا، والتي تريد أن تشارك الرجـــال فلتحمل اللفائف وتضمّد الجرحى.

ثم شملنا جميعاً بنظرة حب وابتهل:

- وليباركنا الله.

وسار في المقدمة؛ مارد، قدماه في الأرض، وكوفيته في عمق السماء، فيما كانت الشمس تغزو أديم السماء.

***

- أيها الغريب، نحن لن نقتلك، لا... ولكن ستخرج منها غريباً، مثلما وطئتها.

توسل المختار بمداهنة:

- ولكن يا أخ شاكر؟

وقاطعه شاكر بحدّة ولكن بصوت عميق وهادئ:

- أنا لست أخاك.

وأنشأ المختار يحدق فينا بالتتابع يستشفّ أغوارنا، ولما انتهى وجدنا وجوهاً واهنة اصطلت بالجوع والفاقة، أطفالنا مجرد أسمال على عظام، نساؤنا أعواد نضب الدم من خدودهنّ، وجفّت نهودهنّ وأخذن يدررن الهواء، بينما كانت دواخلنا مراجل يتبقبق الماء منها بتوجّع مسعور، وسواعدنا براكين تنتظر انسفاح الصخور المائعة لتنتشر كتل النار على الأرض ويستحيل كل شيء جمراً ورماداً، وناراً تأكل قلوبنا وتنطلق من أفواهنا أسنة لهب تحرق المختار وتحيله إلى فطيسة متفحمة...

سمعنا المختار يقول:

- وأموالي...؟

- تستطيع أن تأخذها معك.

لم أتحمل قول شاكر فبادرته:

- ولكنها أموالنا؟!

- رويدك يا خضر، حق (ب) لن يغمط ولكن بالمقابل يجب أن لا نتحول إلى لصوص أفّاقين مثله، أليس كذلك...؟

وقاطعنا المختار قائلاً بصوته المخاتل المعروف:

- والغلّة...؟

أجابه شاكر باللهجة نفسها:

- لا... أيها الغريب، الغلّة لنا، لأنها أصلاً من هذه الحقول، ابنة هذه السواعد المتعبة وتلك الوجوه الجائعة.

سكت شاكر ريثما يعطس ثم مسح فمه بكم صايته وتابع حديثه:

- ولك مهلة الليلة المقبلة هذه، وعند الفجر أحب أن تشرق الشمس على القرية بدون مخاتير مثلك.

كان لا بد للمختار أن يختار، فرجاله توسّدوا الأرض بعد أن سبحوا بدمائهم(*) وعلى مقربة منهم كان حاتم(**) وثلاثة من بررة (ب) يفترشون الأرض الجرداء بصمت أبدي... وأخيراً أيها الغريب،

(*) ولما وجدنا المختار قلباً واحداً وصوتاً واحداً، نحن أبناء (ب) أخذته الحيرة. من يختار إذن، ومن أين..؟ هو بحاجة إلى الرجال لكي يحرسوه ويحرسوا أمواله ومخازنه ولكنه وجد ضالته في تلك الموجة من الغرباء الذين نزلوا القرية للتسول فاتفق معهم على أن يكفيهم رزقهم مقابل أن يصيروا رجاله فوافقوا.

(**) كان الجو يصطلي بالرصاص المنهمر من علٍ، من التل حيث كمن المختار ورجاله، وكان الرجال، رجال (ب) يردّون بالمثل، كنت أحمي شاكر ونحن نتسلق التل ببطء ولكن بتصميم قاتل لإنجاز المهمة حين رأيت حاتم محمولاً بأيدي الرجال الهابطين إلينا، صرخت:

- حاتم.

ورأيته ينظر إليّ من فوق الأكتاف بعينين مشرقتين وألق باهر يشرق في بؤبؤيهما، ثم وبلحظة صاعقة انطفأ الومض ومالت الرقبة.

وحيد غريب كما جئت، وضعيف كما جئت، وعارٍ على حقيقتك العفنة التي تستّرت عليها لما منحوك حق الإقامة عن طيبة قلب كنت فيها مكرماً ومقامك بين العين وجفنها، وستخرج ومقامك بين راحة القدم والمداس، إيه أيها المرابـــي، سلسلة من الممارســـات والزلفـــى والقتل... والمحصّلة النهائية حفنة ريح. رفع المختار رأسه وحـــدق في وجه شاكر، كانت ثمة دمعة مشرقة تنساح على أهدابـــه، توســـل بصوتٍ خفيض:

- أعطوني فرصة لأبدأ من جديد ونفتح صفحة جديدة.

أجاب شاكر بصرامة:

- لقد نفدت الصفحات حتى الغلاف حولنـــاه إلى صـــفحة ولكن لم تجدِ معك.

ثم قال شاكر بعد برهة:

- نحن لا نزال ننتظر؟

أجاب المختار وطرفه ملتصق بالأرض:

- كما تشاء.

***

- ماذا تعتقدون، هل سيسكت؟

سألنا شاكر وفي وجهه أمارات العالم ببواطن الأمور:

- بالتأكيد لن يسكت، سيؤلب علينا جماعته...

أجبت شاكر وراحة يدي اليمنى تتحسّس بالتذاذ غريب برودة أرض فناء الدار المفروش بالطابوق الطينيّ الحرّ، كان يوسف المتكـــوم على يميني والمتقنفذ على نفسه ينفخ زفيره المعبق بالبخار على راحـــتي

يديه المكوّرتين، كان البرد ساعتئذٍ سلطاناً منتفخ الأوداج والكرش، فيما انتشر بقية الرجال في فيء الخيمة المطرزة بالنجوم السامقة البعيدة – والبرد ينخر عظامنا – في أنحاء شائهة جماعات جماعات متلاصقة حد الانصهار طلباً للاحتكاك وكلنا عيون شاخصة نحو شاكر الذي استطرد.

– والعمل...؟

– لن نكون نعاجاً.

هتف صوت بين الجموع:

– ولن نكون أكباشاً يا أبتِ، أليس كذلك...؟

وقام صاحب الصوت واستطرد بالصوت الواثق نفسه:

– بل ناراً تحرق أخضرهم ويابسهم.

ومن خلف الشجرة الجاثمة لمحت وجه الشاب، عينان صقريتان تبثان عموداً هائلاً من الضياء، وجسد ممتلئ قصير، لكزني يوسف:

– أعرفته؟

– أظن هذا.

– من...؟

– أيوب.

– ابن المرحوم... رحمة الله على روحك يا حاتم.

وكان صوته وهو يخاطب شاكر ذا نبرة تتقد فيها حماسة الشباب والجرأة الموروثة عن أبيه:

– سنصدّهم يا جدّي...؟

واغتسل بالصمت لبرهة ثم أتانا صوته:

- لماذا أبقيت على حياته؟

أطرق شاكر، أثارنا السؤال واشتقنا للجواب، ولكن ما قاله شاكر زاد من الحيرة التي كانت توغر صدورنا:

- سوف ترون.

ثم استطرد ومباشرة:

- نعم يا أبنائي سنصدّهم كما...

وشمله الصمت وكأنه فطن إلى شيء، وقال بعد قليل:

- هل ثمة من يخالف الرأي، ليجهر به دون تردد، نحن ما اجتمعنا هنا سوى للمشورة.

وتتالت الهمهمات من كل صوب:

- موافقون.

و:

- نقاومهم.

و:

- نحن معك.

فأشار شاكر براحة يده فانتشر السكون يخضّب المكان، سمعنا صوت شاكر حارًّا متدفقاً:

- رباه، أسألك سداد الرأي.

وبعد أن تمتم مع نفسه بكلمات لم نفهم منها سوى همهمات غامضة اعتدل في جلسته فوق الدكّة الطينية حذاء الحائط الطينيّ لدارتنا الكبيرة وقال:

- لديّ خطة هل تسمعونها؟

- هاتها.

- خطتي كما يلي: دوريتان من الحراسة الليلية، الأولى تحت إمرة خضر ويونس وتبدأ نوبتها منذ الغروب حتى صياح ديك منتصف الليل، والثانية تحت إمرة يوسف وفاضل تتسلّم من منتصف الليل حتى الفجر... ما رأيكم..؟

وافق الكل، بل رطن أجلّهم كلمات الإعجاب، ولكن شاكر سأل:

- هل من خطة أحسن، أو اقتراح ما؟

نهض أحد الشبان وقال:

- خطتك جيدة يا عمّاه، لا نختلف عليها، ولكن لي اقتراح يتضمن حراسة نهارية أيضاً، فإن وافقتم أقترح أن نرصد طريقَي الموصل، علاوة على رصدٍ عالٍ من قمة التل.

لهج شاكر بإعجاب:

- إنه نعم الرأي يا بنيّ.

***

وأقبل آذار بأيامه الدافئة ولياليه الباردة، لقد تبددت آمالنا الواهية في هطول الغيث وانصبّ جلّ تفكيرنا في الاقتصاد بالمؤونة التي وضعت تحت إمرة شاكر، يوزّع حصص الحبوب بالتساوي، لا مفاضلة بين العاقل والمجنون، وبين المبصر والبصير، ... وصارت الأرض رمادية ذات تراب حريف لاذع وأجردت البساتين كاشفة عن عورتها، وبدأ طير السماء يهاجر نحو مرافئ أخرى علّه يجد مستقراً لطوافه، وتبدّلت طبائع الناس فازدادوا صمتاً وتوجّساً، ولكنّ شاكر بروحه الدمثة ولسانه الذرب وشخصيته التي انغرست في

قلوب الناس الكثر، كان يبثّ فينا نفحات الإيمان ويعيد إلينا بعض البهجة والأمل، وكان يردد دوماً:

- لا تيأسوا من رحمة الله يا أبنائي، إن الله لا يغمض عينه عن عباده، تمسّكوا برباطة الجأش والصبر والإيمان.

***

- خضر...
- ...
- استيقظ يا رجل...
- مـــ... من..؟!

وأزحت اللحاف عن جسدي ثم عمدت إلى القداحة وأشعلت الفانوس، انتشر ضياؤه في جنبات الغرفة شبه العارية، كانت صبيحة تغطّ في نومها العميق، لمحت ابتسامة ناصعة تنفرش على شفتيها، جاءني الصوت ثانية ولكن به نزق وتذمّر:

- استيقظ أيها البغل.
- يوسف.

همست والنوم لما يزل يغلّ عيني، سمعته يقول:

- أفجرنا.

وفتحت الباب بعد أن رفعت المزلاج الخشبي الطويل عن العروة الخشبية، كانت صبيحة قد استيقظت أيضاً وبدأت تزيح الفراش، وكان ثمة في وجهها بقايا لذّة قريبة عابرة، استقبلني وجه يوسف البشوش، كانت الغدّارة تلتصق كطفل رضيع على كتفه اليمنى، ابتسم وهو يقول:

- الرجال في المضيف.
- دقائق وأكون جاهزاً.

وفسحت له في المجال، دخل وجلس فوق الحصيرة بعد أن حيّا صبيحة وأخذ يحثّني:

- هيا، ارتد ثيابك لنلحق بالرجال.

***

ونحن في المضيف المغتسل بنثيث الفجر الهاطل، نتبادل الأحاديث حول كيفية مقاومة لهيب القحط والمجاعة ببقايا غلال المخازن المحرّرة، والتي توزعت بالتساوي بين أناس القرية، وجلّنا يفكر في دخيلته كيفية تدبّر أيام الصيف القادمة، وتتصادى همساتنا الصامتة وتفكيرنا الصائت مع أنين دلال القهوة وهي تتلظّى بألم شهدي فوق نار الموقد ورائحة القهوة اللذيذة تزكم الأنوف، ... أمطرت السماء بغتة، رصاصاً أجفل الصوّان والصلصال، وأيضاً الطير اللائط في أفنان الأشجار، وتحدث الرصاص بلغة لا يجيد سواها، هي التغلغل في الأجساد واختطاف تلك الكنوز المطمورة هناك،... في الأعماق، في أقصى أعماق الأجساد.. كان الرصاص يتكلم بلغة الجندرمة الأتراك وربيبهم المختار، ويرتدي القامات المشوربة بتطرف والآتية من الموصل، والمتجبّبة بليل ينوح على قمره الغائب، وبطريق وعر مهمل لم نكن نتوقع مجيئهم عبره... وبمرور الوقت وانكشاف الصبح صار من المستحيل إجراء أية مقارنة بيننا وبينهم، فعنصر المباغتة والخديعة والكثرة المفرطة لأعدادهم تغلّبت بالتدريج على الهمة والشجاعة، وتوسّد بعض الرجال الثرى وعيونهم المغادرة تعانق البيوت والأحبة

والأطفال... صارت الحيطان تروساً للأجساد التي تزخّ ويزخّ عليها الوابل من الرصاص.

كثرة عدد المهاجمين جعلت شاكر المتمترس ببندقيته خلف الجدار الشمالي لدارته الكبيرة يهمس للشباب بإيصال طلبه للرجال بالتوجه مع ما يستطيعون حمله من أكثر عدد ممكن من البنادق والانسحاب بترتيب دفاعي يعطي أقلّ الخسائر نحو الجبل. فنفّذ الطلب بشكل رائع ولاذت الأجساد الفائرة بالجبل غير المحاصر، ليصير، كديدنه الحنون، الدافق بالطيبة التي تجعله يضمّنا بين جنحيه ويهبنا الأمان والصلابة والإرادة.

***

من صدر الجبل نظرنا (ب) النائمة بوداعة طفل بريء، كانت السماء رصاصية باهتة وكئيبة تلبد فوق القرية ببلادة هوجاء والغبار الناعم يحفّ ببيوتها الطينية المتقشرة وعلى أسطحها، والقرية الصافنة في هذا العصر الكئيب تبدو كأطلال منسيّة تركها أهلها للريح والعفاريت، وفي الساحة الفسيحة المنتشرة من سفح التل حتى فناء دارتنا الكبيرة، كنا نرى الجندرمة يحيطون وهم على أعنّة جيادهم بالشباب اليافعين من قريتي وهم مربوطون كالنعاج الواحد إثر الآخر، كان شاكر يقف كمارد خرافيّ أو كفارس أسطوري فوق صخرة كبيرة ويعاين الموقف بأطراف لا ترف وبرباطة جأش وهدوء عجيب، التفت إلينا على حين غرّة وهتف:

- ما لي أراكم والصمت يأخذ بألبابكم؟
- لا... بل نحن حزانى على هؤلاء.

قال مبتسماً وفمه يرتجف لا أدري ممّ:

- ماذا تعتقدون، هل يظفرون بشيء؟

- ...

ثم قال وهو يصرُّ على أسنانه:

- مستحيل... ما خلقت (ب) لكي تُذلّ.

ثم قال بغضب أشدّ:

- إلى الجحيم بالرجال إذا حدث ذلك.

فهتف أحد الشباب:

- كلنا فداء لـــ (ب).

جلس القرفصاء وتمعّن فينا وقال:

- ماذا تقترحون؟!

قال أحد الشباب:

- يجب أن تعتمد خطتنا على مدى قوة تســـليحهم والعـــدد الإجمالي.

سأل شاكر:

- وكم عدد بنادقنا؟

قلت له مباشرة:

- ثلاثون.

- لا بأس.

قال شاكر، ثم استطرد:

- من لديه خطة؟

- أنا.

قام أيوب من بين الجموع ثم تقدم وتقرفص جنب شاكر، التقط

عوداً صغيراً وأخذ يكشّ به الأرض راسماً خطوطاً ودوائر ثم قال:

- خطتي تتلخّص بتطويقهم من ثلاثة محاور.

الأول: يقطع الطريق المحاذي للتل ويكون بإمرة العمّ خضر والعم يوسف.

الثاني: يقطع الطريق المحاذي للساقية بعد أن يتخذ من البساتين غطاءً ويكون تحت إمرة العم يونس والعم فاضل.

أما الثالث: فيكون اقتحامياً تصادمياً ويكون تحت لواء الجدّ شاكر وتتوزع البنادق بين المجاميع الثلاثة... ما رأيكم؟

وتعالت همسات الاستحسان والتأييد ثم قال أيوب:

- حسناً أيها المختار، لقد جاء وقت إيفاء الدين.

قاطعه شاكر والغضب في عينيه شلاّل ناره حمراء حارقة:

- لا يا بنيّ، إنه يوم تصفية الحساب بين (ب) وبينه، دعه لي أناشدك بالله؟

***

نهود، بضّة وسمراء وحنطية، ريّانة ملساء، وخشنة، تبرز بهَيَجان من ثنيات الأردية الممزقة، والنساء، عجائز وبناتٍ، يتباكَين بحرقة أليمة، ويتهالكن مستلقيات بإعياء وحزن يائس صاغرات:

- ما هربنا لننفذ بجلودنا، بل لندبغ جلودهم.

والصوات ينسل من أفواههنّ كعويل الرياح الشتائية القارصة:

- لن نكون نعاجاً.

هبوطاً كنّا من غيران الجبل نعاين بعيون تتقد غضباً شباب القرية الصغار وهم يساقون عنوة مربوطين بحبل أحدهم تلو الآخر

والحزن ينضح من عيونهم صحراء مديدة تسبح في الغلسة واللانهاية:

- أزفت الساعة.

والجندرمة ببناطيلهم القصيرة وجواربهم الملفوفة لحـــدّ أعلـــى الركبة ينظرون إليهم من علٍ باحتقار:

- بل دعاة حق.

والسياط المشهرة بأيديهم تؤشر نحو الغرب حيث تغرق الشمس بإباء ناشرة حزمها الوضيئة إلى قامات الرجال الهابطين من الجبل إلى القرية من جهاتها الثلاث...

الفصل الثالث

رجال المقلوب

سمعت أبـــي يهتف دهشاً:

- إبراهيم.

- مساء الخير.

وتناهى إلى سمعي صوت خطواتهما الرتيبة، اتجهت نحـــو بـــاب الغرفة وأطللت من عل نحو جسديهما المغتسلين بضياء القمر، لمحـــت سيماء وجه عمي، كان تعب السفر المضني يبدو جلياً في عينيه وكأن السهاد قد امتصّ ضياءهما أو ربما البكاء المتواصل:

- ولِمَ البكاء؟

همست لنفسي بحيرة، داهمتني رغبة مُهمّـــة فاجعـــة - لا أدري لماذا - للتلصّص فاستندت بيدي على سياج الطابق العلويّ للبيـــت، سمعت شهقة حبيسة مكتومة تنطلق من حنجرة عمي تســـمّر علـــى أثرها أبـــي مصعوقاً وأمسك عمّي من كتفيه يهزّه:

- إبراهيم؟

- ...

- هل...؟

أشاح عمي وجهه ونظر إليّ، فوجئ بالموقف حـــين رآني قـــد أمسيت عيوناً تكبله، كانت عيناه دامعتين وثمة ارتجاف خفيف تحت شفتيه القرمزيتين، تماسكت وسألته:

- جدّي...؟

وأومأ لي برأسه بحركة يائسة خاطفة، شعرت بالدوار وبوجـــع

في يديّ القابضتين على حديد السياج، وكان ثمة خيط رفيع من الدم يتسلل من أصابع يدي اليسرى وهرولت صوب غرفتي...

***

شققت طريقي نحو تابوته المسجّى على بلاط الممر، ساد صمت مهيب وجوه المحتشدين وطفقوا يتطلعون صوبي بفضول وترقب من ينتظر معجزة أو كارثة. وهم محقون في ذلك، لو وضعوا في أنظارهم مدى تلك العلاقة الصميمية التي كانت تربطنا نحن الاثنين، أنا وجدي، تابعتني العيون وأنا أزيح غطاء التابوت، تبينت وجهه تحت ضياء مصباح الغرفة، ساكناً كتمثال... أيمكن أن تصمت كل هذه الحيوات المتقدة الضاجّة بالحيوية والعراك في سبيل البقاء والاستمرار..؟ أيمكن أن تخبو وتعدم في لحظة لا مبرر لوجودها إطلاقاً اسمها الموت..؟ حيث يتبدل كل شيء وتنطفئ تلك الجذوة المستعرة في الجسد وتمسي عدماً. كان وجهه هادئاً على غير العادة.. أين ذلك الوجه الممتلئ بالحياة حتى في حوله الثمانين؟ لقد اضمحلّ وتلاشى وحلّ مكانه لون باهت بلون الطين، أين ذلك الوجه القاسي الحنون الجادّ المرح الغاضب المتشابك بالأحاسيس والانفعالات؟ أين؟

- لقد طال صمته.

وآخر:

- لم يرف له جفن.

وثالث:

- كان يحبه كثيراً.

شعرت بأن عليّ أن أفعل شيئاً، حاولت أن أبكي ولكني لم أفلح، يجب أن أتصرف، خيّل إليّ أنه ينظر إليّ من تحت أهدابه الناعسة بنظرة صارمة ويهمس لي:

- قبّلني يا أسعد.

انحنيت عليه وطبعت على جبينه قبلة لائبة ولكن قصيرة ومضيت كما جئت بصمت والعيون الدهشة تلاحقني.

***

خضر مات أخيراً، ما أصعب أن تنال الأماني وما أتفه الآمال التي لا تبنى ولا تتحقق إلا في الرؤوس، أية مفارقة مضحكة يا جدي، بين الأمنيات التي لم تتحقق وبين موتك المزري - حسب تقديرك - في فراش وثير أمام إبراهيم وأحفادك وليس كما كنت تتأمل في غوابر الأيام مع يوسف وسليمان ويونس وفاضل الذي كان آخر المودعين، لا أزال أذكر ذلك اليوم يا جدي، أذكر بقايا غضبك وحزنك وفرحك حين قلت لي:

- أسعد، أسمع صوتاً نسائياً، ما الخطب.

كنت عازماً ألاّ أخبرك ولكنك قطعت عليّ صمتي بصوتك الثاقب:

- لم تجبني...؟

ارتبكت، تلعثمت.

- لا شيء يا جدي، لا...

ولكنك اكتشفت ارتباكي فصرخت بوجهي:

- ملعون، أنت تخبئ شيئاً.

وكان لا مناص من إخبارك فقلت بشفتين مرتجفتين:

- فاضل...

رأيت جسدك المتعب يرتعش وعينيك تقدح بوهج غريب ويدك تمتد نحو شفتيك وتهتف بصوت ذبيح:

- كفى، لا تكمل...

كانت عيناك تدوران في محجريهما كالزئبق، ثم بصوت كالوشوشة:

- يرحمه الله.

ثم غمغمت باستياء:

- الواحد لحق بالآخر، ليس كما كانوا يتمنون، مثل يوسف.

توقفت ريثما تستعيد أنفاسك واستطردت بهدوء:

- لم يبق إلاّ خضر.

وحتى أنت يا جدي لحقتهم ولكن ليس كالشجرة مثل يوسف.

***

- يا بنيّ، إن كل الناس وبكافة أجناسهم يولدون عراة، لا أحد ولد وعليه كسوة. السلطان عبد الحميد ولد وهو عار، يوسف كذلك، لا مفاضلة عند ربنا بين إنسان وآخر.

قلت له وأنا ألقي عليه نظرة بها خبث:

- جدي، أراك تكثر من ذكر يوسف، لِمَ هذا الحب اللامتناهي له؟

تألقت عيناه بومض صاعق ومسح أرجاء دار جدي الكبيرة، والتي لم يبق منها سوى الكوخ الآيل للتداعي وبقايا تنور وبضع أطلال طينية، وتمتم:

- انظر إلى هذا الكوخ، إنّ فيه كافة أسرار الصداقة التي كانت تربط بيننا، لقد دونتها جميعاً وبأدقّ تفاصيلها وأودعتها الصندوق الخشبي..

سألته باهتمام:

- ومن أين تعلّمت الكتابة؟
- لقد علّمني أبي رحمه الله، كان باشكاتباً في شبابه المبكر في دائرة الولاية بالموصل.
- حدثني عن تلك الأيام.
- سأفعل، ولكن ليس الآن.
- متى إذن..؟
- في المساء.
- أوعد هذا؟

نظر إليّ بعتب وقال:

- بالطبع.
- وإن أخلفت.

ماجت قسمات وجهه وهتف:

- خسئت يا ولد.

ورفع عكازته يهمّ ضربي، ابتعدت عنه وأنا أقول ضاحكاً:

- اتفقنا إذن يا جدي.

***

الصوات الممطوط يغسل القرية الصافنة ويتسلّل إلى أذنيّ كأسطوانة مشروخة، نزلت من غرفتي، كانت ملامح الفجر الأولى تنساب من الشفق الشرقي كطفل يحبو، والديكة تتناوب بالصياح، والرجال والنساء يتوافدون مع الخطوط الفضّية الأولى لفجر تشرينيّ جديد، ألقيت نظرة مؤسية نحو الحجرة التي يستلقي في أحشائها ذلك الرجل الذي أحببته منذ نعومة أظفاري حدّ الهوس، استحضرت في ذهني تلك القامة المديدة المستقيمة العملاقة، العينين السوداوين الغلستين، اللحية البيضاء، وتلك العنق العتلاء، ... دفعني هاجس مفاجئ وحميم لاقتحام الغرفة والاستلقاء بجانبه، أوقظه – كالأيام السالفة – لكي يقصّ حكايا رجال المقلوب والإنكليز والخائن حتى يحلّقني إلى عالمهم المندثر الحيّ في رأسه، والجميل حد الخيال ويجعلني أعيش دقائق تلك الحياة العصيبة والرائعة أيام انسحاب الأتراك ودخول الإنكليز، والبيادر والجبل، ثم ينتابني النعاس فأغفو تحت قدميه بينما يتابع الحديث بتلك الحماسة المتدفقة حتى ينتبه فيهز رأسه أسفا وحباً فيدثّرني ويخرج إلى الليل والقمر والنجوم ولفّ السكائر،... صوت ما أيقظني، أرهف سمعي، كان الصوت يقصدني، تلفتت أبحث عنه بين القامات الملتحقة بالاحتفال الغجري، ثم انفرزت من بين الأجساد قامة عمي:

– تعال يا أسعد.

وتنحى بي جانباً وقال:

– لك وصيّة من المرحوم.

هه... همست لنفسي، وصية، أخرج عمي مفتاحاً كبيراً أكله الصدأ من جيب صايته وناولني إياه، قلبته بين أصابعي مأخوذاً، أهذه الوصية..؟ ما معنى هذا...؟ لاحظ عمي ارتباكي فخاطبني:

- تريد التفسير.
- وتذكرت، ولكن عمي استتلى:
- هذا هو إرث جدك، وقد أوصاني وهو يحتضر بأن أسلمه لك.

تأملت المفتاح بدهشة المكتشف الجديد، وثمة هاجس أثيري يرتديني، وعرفت منزلتي عند جدي، شعرت بالفخار، طال صمتي وتأملي، بينما استطرد عمي بحزن أسيف:

- إنه مفتاح الخزانة الخشبية التي لا يعلم ما بها إلاّ الله تعالى، وجدك.

***

- كانت عصيبة تلك الأيام العجاف.

قال جدي وعيناه الألقتان تحاكيان ألق القمر السامق فوق الكوخ، فيما كانت أصابعه ترتعش كورقة شجرة تحت رحمة خريف أصفر، ورأسه يهتز كالبندول وهو يجاهد في استجلاء ذكرياته البعيدة، اعتدل في جلسته ولمّ عباءته الجوزية اللون حول جسمه ومدّ أصابعه نحو نهاية لحيته المتهدّلة وسرح في البعيد، سها للحظة طويلة ثم قال... كشفوا مخبأنا أخيراً، ثمنا في شعاب الجبل، أصبحت كهوفه المعتمة ليلتها حرزنا الحريز، من هذا الجبل الذي تراه الآن على يمينك كان الابتداء وفيه توقدت الشعلة التي أيقظت رجولتنا الصميمية، والغضب الذي استعر في دواخلنا للانتقام من قتلة يوسف..

قتل يوسف ونحن في مهمة في قرية (ك) المجاورة كانت مهمتنا ناجحة حيث أقنعنا أناس القرية بالتعرض لمؤونة الإنكليز من الموصل

وتدميرها وعقدنا اتفاقاً بالدفاع عن القريتين في حالة تعرض أي منهما لاعتداء الإنكليز، وبعد أن وصلنا سفح الجبل لاحظنا أنّ المصباح الذي ينيره عادة سليمان في الليل كعلامة متفق عليها كان مطفئاً، توقفنا والحيرة والتساؤل والتوجّس تعقد ألسنتنا، كان القمر يبحث عن الانعتاق والمطر يهمي مدراراً يصفح وجوهنا، احتمينا تحت صخرة عملاقة والصمت يصفد حواسّنا إلى أن همس يونس:

- سنصعد الجبل.
- ولكن فرادى.

قلت لهم فيما أسر فاضل وعيناه تجولان في رأسه بجنون:

- والتجمع عند شجرة الزيتون.

بينما استطرد يونس:

- قبل أن نتفرّق يجب أن نتفق على كلمة السرّ، كيلا نصطدم الواحد بالآخر.

أجبت على الفور:

- لتكن كلمة السر زيتون.

وتفرقنا على ثلاث جهات، يونس من جهة الساقية، وفاضل من الجهة الغربية، وأنا من التلّ المطلّ على القرية من عل، كانت الفوانيس المعلقة بجدران المخفر الخارجية مضاءة على غير العادة، تعجبت من هذا وتساءلت في سرّي، ما الأمر..؟ يبدو أنّ شرطة الإنكليز ما عادوا يخافون غدارة يوسف وتصويبه الدقيق، أين إطلاقاتك لتمحي هذه الفوانيس وتحيلها إلى هشيم وزجاج متفتّت، لا أدري كم صخرة تسلقت وكم شجيرة تخطيت وكم من الهواجس المتفرقة استوطنت رأسي المضطرب، ولكني أحسست بأنّ المطر قد

انقطع والقمر قد خرج كعذراء خجولة من خلف غيمة سوداء كالحة، فتبدت معالم الجبل وأسراره كناسك متبتّل يبحث عن الهدى وسرّ الكون والخالق، فقفزت بخفة وسارعت من خطوي، وبعد أن مشيت بضع خطوات رأيت ثمة سواداً متحركاً يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، احتميت وراء شجيرة وهتفت ثاقباً سكون الليل:

- قف.

رأيت الجسد يمسي كالحجر، كالتمثال تماماً، شككت بنفسي، أيمكن أن يكون خداع بصر؟ ولكنّ البريق الحادّ للعينين جعلني أتيقّن أنه بشر أو حيوان مفترس، تقدمت خطوات ثلاثاً ويدي ثابتة على الزناد، دقّقت النظر جيداً، إنه إنسان ولكنه يبدو على حالة مضنية من التعب أو ربما الهلع، صرخت به:

- تقدّم.

خطا اثنتين، ولكني لهجت كاتماً صرخة مدوّية:

- سليمان.

هرعت إليه وأسندته إلى كتفي:

- سليمان ما الذي حدث؟

عضّ على شفتيه بتوجّع وهمس من بين أسنانه المصطكّة:

- أنا جريح.

- جريح!

همست لنفسي وبادرته بلهفة:

- من...؟

كان الإعياء قد أخذ منه مآربه، فتهالك على الأرض متمتماً:

- الإنكليز.

ثم غمغم بأسى:

- لقد وشى بنا توفيق.

صرخت مستوفزاً:

- ويوسف.

عضّ على شفتيه، هززته بعنف:

- سليمان.

أجاب بصعوبة وبصوت ذي جرس فاجع:

- قتلوه.

وأغمي عليه، همست كالببغاء، ... قتلوه، غير معقول، زين الشباب يموت، لا أصدق، أمسكت سليمان من زيقه وأخذت أصرخ:

- إنك تهذي، تمزح، كيف يقتل يوسف، قل يا سليمان إنها نكتة.

ثم صرخت:

- يوسف.

فردّد الصدى:

- يوسف... يوسف... يوسف.

وانتبهت إلى نفسي فرمقت سليمان بنظرة عطف، حملته على كتفي وتسلقت الجبل وأنا أشهق بنشيج ووجدت نفسي فجأة أمام المغارة، لم أبال بصوت يونس وهو يأمرني بالوقوف بل صرخت به:

- هلمّ ساعدني بإنزاله.

- من هو..؟

- إنه سليمان.

- سليمان؟

هتف الاثنان معاً، لم أستطع كبح حزني فتهالكت قرب جسده مبهور الأنفاس وقلت للوجهين المحملقين بصوت متقطع:

- رشّوه بالماء.
- ولكن ما الذي حدث؟

قلت لهما الخبر الذي نزل عليهما كالفجيعة:

- لقد هجم الإنكليز.
- ويوسف...؟

هتف الاثنان معاً، لم أستطع كبح حزني فغطيت وجهي وتملّكني صمت آسر، ومنه عرفا أنّ كل شيء قد انتهى، فساد سكون مطبق، وصحونا على نبرات سليمان اللاهجة.

- ماء... قلبـــي يلتهب، جرعة ماء.

فعمدت إلى المطارة وسقيته، نهل منها حتى ارتوى وانطفأ ســـعير أحشائه ثم انتظمت أنفاسه وطفق يخزرنا بعينين زائغتين متطيّرتين وقال:

- لقد باعنا توفيق للإنكليز.

قلت له:

- ما الذي حدث بالضبط؟

همس وكأنه في عالم خاصّ:

... بعد ذهابكم لتنفيذ الاتفاق لاحظت أنّ توفيق علـــى غـــير عادته لائذ بالصمت محنيّ الطرف ينكش الأرض بعصاه، بينما كـــان يوسف يزيّت الغدّارة بأناة وهو يدندن فيما كنت منـــهمكاً بمراقبـــة القرية، قال توفيق فجأةً:

- سأنزل للقرية.

سأله يوسف:

- ألأمر مهم!؟

أجاب توفيق:

- لأرى عائلتي وأطمئن إلى الأطفال، وأتسقّط الأخبار.

وساق حماره منحدراً من الجبل دون أن يلتفت وسط ذهولي وهدوء يوسف، راقبته وهو ينحدر كالأرنب حتى استوى فوق التلّ ثم نزل نحو القرية وغاب عن ناظري عندما دخل بساتين الكروم المحيطة بالقرية، التفت نحو يوسف وقلت له:

- ما خطبه؟

- لا أدري.

ثم أردف:

- من حقه أن يطمئن إلى عائلته.

- والإنكليز؟

قال يوسف بصوته الواثق:

- لا تنس أنهم يجهلون ارتباطه بنا، وحسبهم أنهم يعرفون فيه الجوال.

وفي الليل وقبل مجيئكم بنحو ساعة من الزمان، سمعنا صوت صياح توفيق وهو يأتينا من أعلى الجبل.

- يوسف، المكان مطوّق من كل الجهات، سلّم نفسك للإنكليز وهم بدورهم وعدوني بالعفو عنك وباقي الرجال.

انتفض يوسف كالملدوغ مأخوذاً بالمفاجأة، ولكنه تماسك ومسح أرجاء القمة بعينين صقريتين، تركزتا على صخرة "الأسد" لبرهة وامضة ثم صرخ كالرعد:

- خسئت يا خائن أنت وأسيادك، ارجع لهم قبل أن تقتل.

ثم بصوت حادّ آمر:

- إني أراك، أنت لا بد وراء الأسد، أستطيع أن أجندلك الآن، ولكن من العار أن تتلوث غدّارتي بدماء خائن...

وقبل أن يكمل انهال الرصاص علينا كالمطر، لبد وراء صخرة صغيرة وانبطحت خلفه أصوب في الاتجاه الآخر، بقينا صامدين ونحن وسط حلقة جهنمية من الرصاص حتى كادت الذخيرة تنفذ، خاطبني يوسف هامساً:

- انسحب أنت، وأخبر الرجال قبل أن يقعوا في الكمين.
- وأنت؟
- سأشاغلهم وحدي.

واهتزت الدنيا في رأسي وكتمت صرخة أليمة، عضضت شفتي السفلى وامتدت أناملي نحو حفرة صغيرة في فخدي الأيمن، كان الدم يشخب منها أحمر يجلّل بياض الصاية ولكنّ الصرخة أفلتت من شفتيّ عنوة:

- أي...

هتف يوسف بحرارة:

- سليمان؟!
- لقد أصبت.

زحف صوبي حتى أدركني، تفحّص موضع الجرح وقال بسرعة:

- الجهة الجنوبية غير محاصرة لأنّ الرصاص لم يأتنا منها قط، تدحرج باتجاهها.

- وأنت – ماذا تفعل؟
- حتى الموت.

وأشهر رصاصة يتيمة في راحة يده اليسرى وقال:

- بها سأقتل نفسي.

وقبل أن أحتجّ، دفعني بقوة فانحدرت متدحرجاً ولكن بعد حين استعر الألم في فخدي فتوقفت وزحفت وراء جذع شجيرة وأنشأت أتنصّت، كان الرصاص ينهمر كالحالوب[1] ثم انقطع فجأة وساد صمت طويل إلاّ من اللغط، سمعت بعده صوت الإنكليزي وهو يهتف بفرح:

- إنه ميت.

وأخذت أنحدر بجنون لا ألوي على شيء سوى ملاقاتكم حتى وجدني خضر...

وسكت جدي، انقطع حديثه فجأةً، كانت يداه ترتعشان ووجهه مثل تفاحة حمراء وشفتاه تختضّان، انتفض بغتة ولفه صمت آسر مهيب عرفت أنه سينطوي على نفسه إن لم أتدارك الموقف فسألته بلهفة:

- وبعد يا جدي؟

أجابني بهدوء استغربت صيغته الحزينة:

- لم تفتق الرتوق يا أسعد؟
- أتؤسيك الذكريات لهذا الحدّ يا جدي؟
- لا يا بنيّ، ولكن الذي يحز في نفسي تلك الفعلة التي لا وصف لها البتة والتي سميت منذ غوابر الأزمان بالخيانة.

---

(1) الحالوب: تسمية شعبية عراقية للمطر الذي يسقط بغزارة على شكل بلورات ثلجية متفاوتة الحجم، وقد أسمته العرب قديماً (البَرَد).

- أيه يا جدي، ماذا حدث بعد ذلك؟

أشعل جدي سيكارة جديدة واستنشق نفساً عميقاً أطلقه على هيئة زفرة خاطفة وقال:

- ألم يتبادر إلى ذهنك، لِمَ عصينا عليهم؟ لِـــمَ حاربنـــاهم؟ ولمصلحة من؟ والقصد من ذلك؟

لتوضيح مجمل الأسئلة لا بدّ لي أن أعرّج على وصـــف حيـــاة القرية قبل دخول الإنكليز، كانت قريتنا صغيرة ببيوتها محاطة بتلّ عالٍ من طرفها الشمالي يفضي مباشرة إلى المقلوب، وعند منحدر التـــلّ تمتد بساتين الكروم والزيتون على شكل حزام يلوب حول القريـــة، حتى يلتقي بالساقية المنبثّة من الطرف الشرقي لسفح الجبـــل والـــتي تنحدر من شقّ طولي في قاعدته حارثة طريقها عبر الأراضي المزروعة بالحنطة والشعير والعدس لتشقّ القرية إلى شطرين... كانت قريتنـــا كما أسلفت صغيرة ببيوتها، رائعة بأفراحها، جميلة بممارســـاتها الـــتي تخلّيتم أنتم جيل هذا الزمان عن جلّها، منها على سبيل المثال الزواج، ففي أيامنا قبل الدخلة بأيام خمسة نجتمع نحن خلان العريس في بيتـــه وننفخ بالمزامير وندقّ الطبول ونغني من مسقط الليل حتى طرة الفجر، وكذا العروس تجمع صويحباتها ويتسامرن آناء الليل وأطراف النـــهار، وفي يوم العقد يلمّ العريس أصحابه واحداً واحداً والطبـــل والمزمـــار يدقّ أمامه والرجال يقافزون بالقامات والسيوف ويتجمـــع الحشـــد المهيب عند ساحة البيادر - والتي هي الآن بناية المستشفى - ونلعب على السيوف وندبك حتى تسلم الشمس نفسها لليل، ثم نذهب إلى بيت العريس وندخله على عروسته، ونحن نردّد:

- زوجناه وخلصنا منه...

ونبقى ننتظر العريس حتى الفجر...

وهكذا كانت أفراحنا تترى والسعادة الرخية تغمرنا رغم تحرّشات جندرمة الأتراك المهزومة، ولكننا كنا نضربهم ضربة رجل واحد فيهربون مرعوبين، وكان يوسف بن شاكر أشجع الفرسان وأدقّ الرماة، لن أطيل عليك يا بنيّ كان كل شيء على ما يرام حتى استيقظت القرية ذات فجر على صياح هادر:

- استيقظوا يا رجال، لقد هوجمت القرية.

وعندما خرجنا في تجمعات شائهة نحو البيادر، رأينا فرساناً بعيون زرق وسحن بيض يمتطون سروج جيادهم، ولما انتظمنا إزاءهم، أشار مقدمهم بيده فوقف الجميع، مسحنا بعينين حادّتين وقال بلغة ركيكة:

- من كبيركم...؟

انبرى شاكر وأجابه بحزم:

- ماذا تريدون؟

نظر الإنكليزي إلى شاكر بنظرة حذرة ثم أطلق ابتسامة مصطنعة وقال:

- يجب أن تعرفوا أننا أصدقاؤكم ولا نبغي شراً بكم، لقد جئنا لحمايتكم من الأتراك.

أجابه شاكر برصانة:

- نحن لسنا بحاجة لمن يحمينا، نستطيع نحن حماية القرية وحلالنا.

ورطن الإنكليزي بلغة لم نفهمها، تحرك اثنان من أتباعه وتأهبا لعمل ما، ثم التفت إلينا وقال:

- هل أنتم معه؟

قلنا في أصوات متفرقة:

- معه.
- لسنا مع غيره.
- لا نخالفه الرأي.

وفضّل البعض السكوت فوجدها فرصة للتمادي فقال:

- ولكننا لا نريد بكم سوءاً كالأتراك.

أجابه شاكر بازدراء:

- الجزة نفسها والخروف نفسه.

والتفت الإنكليزي إلى النفر القليل الصامت المنسلخ عن الحشد وصاح بهم:

- وأنتم؟

أجابه أحدهم:

- لا لسنا معه.

ساد غضب متفجّر عروق رقبة شاكر وصرخ به:

- مهلاً يا صاح، هل قاومنا أولئك من أجل هؤلاء؟

واختلط الحابل بالنابل، أكثرنا يؤيد شاكر، ونفر قليل جداً فضّل الغرباء، هاج شاكر وبصق على وجوه الخارجين عن الإجماع وصاح بهم:

- خونة...

وفجأةً، طوّقنا من جميع الجهات والفوّهات مشهرة على صدورنا، ترجّل الإنكليزي عن صهوة جواده وألهب الهواء بسوطه وتقدم من شاكر ونخر صدره بطرف السوط وضحك ملء فمه ثم واجهنا قائلاً:

- شئتم أم أبيتم، فنحن باقون في القرية.

وهتف شاكر والزبد يتطاير من شدقيه كحصان أصيل:

- أنت تحلم أيها الغريب.

وقبل أن يكمل أحكم جنديان يديه خلف ظهره، ابتسم الإنكليزي وشمل جنوده بنظرة ما وقال:

- أو... كي.

الصباح الفتيّ يزحف ويلوّن البيوت الآجرية والحجرية والسماء تلوّنت بالخيوط المتزاحمة لقرص الشمس، لا أدري لم أبهرني هذا المفتاح العتيق، تأملته برهبة وإعجاب وفكرت... إنه المفتاح نفسه الذي أراني إياه جدي في تلك الظهيرة الحزيرانية اللائبة حين تابع قائلاً:

- هذا هو المفتاح الذي يقودك إلى السرّ، أو بالأحرى إلى وصيّتي، أرجو منك يا ولدي ألا تدفنوني إلاّ بعد أن تطّلع على الوصية.

إذن يتحتم عليّ أن أطلع على الوصية بسرعة، ... أجرّ خطوي وانسلّ في غفلة عن الحشد، كل شيء هادئ في صباح قريتي، حتى النساء المتلفعات بالشال النيلي والمتسربلات بالعباءات السود وهنّ يتابعن سيرهنّ بتؤدة وحزن يقصدن بيتنا، يغلفهنّ جلال الصباح التشرينيّ، ورهبة الموت إذ حضر، أما ما عدا هذا فكل شيء يتّسم بالهدوء، الكلاب لائطة تحت حيطان البيوت لائذة بالنوم الرخيّ بعد النباح الليلي المتواصل، والدجاج توزع بنشاط في مزابل القرية ينكش بأرجله الخشبية مخلّفات السفر والموائد، والحمائم ترفرف فوق رأسي وأجنحتها تخفق كأنسام الصباح بأصوات موسقة على حديد

مزاريب البيوت، أحث خطواتي نحو المنعطف الذي يفضي إلى زقاق قصير وضيّق في نهايته ينفتح على ساحة واسعة تتوسطها دار جدّي...

... أصبح الأمر واقعاً، استوطن أو احتل الإنكليز قريتنا واستولوا على بيت شاكر وسكنوه وأصبح يعرف بالمخفر، أما شاكر فقد أودعوه إحدى الغرف كأوّل سجين عرفته القرية، وبعد أن أحكموا السيطرة على القرية تبدلت أحوالنا قاطعناهم، مثل أيّ عدو يجثم على صدورنا، لا نصبّ على أيديهم الماء ولا نجلسهم في مضايفنا، ولكن أولئك الملاعين – الغرباء – تمكنوا من التسلل إلى قلوب هذا النفر القليل الطامع في عطاياهم. وفي ليلة نيسانيّة باردة جمعتنا السهرة أنا ويونس وداود وفاضل ويوسف في بيتي، كان يوسف مكتئباً طوال السهرة ينظرنا بعينين لم نفهم بريقهما القادح إلا بعد حين، كنا ندردش في أمور شتّى، وبغتةً صاح بنا يوسف بصوت كالمرجل:

– ألم تشبعوا من ترهاتكم بعد؟

ارتدانا صمت مفاجئ، وأخذنا ننظر إلى بعضنا بحيرة ثم تحولت عيوننا إليه حين استطرد:

– القرية يسبيها الإنكليز وأنتم لا همّ لكم سوى الثرثرة.

قال فاضل بنبرة عاجزة:

– وماذا نفعل حيالهم؟

شملنا بنظرة طويلة يستحثّ دواخلنا بعينيه النافذتين، ثم توقفت عيناه إزاء وجه فاضل وقال بتحدٍّ:

– نقاومهم.

أخذتنا المفاجأة غير المتوقعة، أخذنا نـــردّد كالببغـــاء، ولكـــن كيف...؟

كنت على وشك أن أسأله ولكن فاضل سبقني في قوله:

- كيف؟

- نعسكر في الجبل.

يا للذكاء والفطنة المتوقّدة، كيف لم ننتبه إلى هذا...؟ أنا ضمنياً وافقت في داخلي، ولكني انتظرت ردود الفعل، وفعلاً قال داود:

- ولكننا قليلون.

أجابه يوسف على الفور:

- القلّة لا تقف مانعاً بوجه التصميم والحزم على المواجهة.

قلت مؤكداً:

- فعلاً، أنا معك يا يوسف.

- حياك الله يا خضر.

ثم التفت إلى باقي الرجال وسأل:

- وأنتم؟

أجابوا بالتعاقب:

- معاً إلى الأبد.

انبسطت أساريره بعد العبوس وهتف:

- على بركة الله.

ثم استطرد:

- غداً سوف نصعد الجبل، وفي يوم الخميس موعد وصـــول أرزاقهم، نستولي عليها ثم نشحنها نحو المقلوب حيث مقر المعسكر، ما رأيكم؟

قلت في حرارة:

- لا فضّ فوك.

سرح في البعيد البعيد، أبعد من ذبالة الفانوس الوانية، أبعد من كوخنا الواقع في طرف القرية الغربيّ، أبعد من القرية بذاتها، وقال كمن يبوح بسرّ خطير:

- ولكم عهد عليّ أن لا أدعهم يوقدون ناراً أو سراجاً ما دامت البندقية في يدي.

قال يونس:

- وأنت بحقّ لست بناكث عهد.

ثم قال يوسف:

- ليذهب كلّ إلى بيته، وموعدنا عند ساقية القرية قرب بيت سليمان في الفجر إنشاء الله...

ها هو بيت جدّي، أقترب منه بخطى مرتبكة، أتحسس جيبي لأتأكد من وجود المفتاح ها هو الموعد يا جدي، الموعد مع الأسرار، مع الكلمة التي تحدد مكان مثواك، مع الوصية. أدخل المفتاح في شقّ الباب الخشبي، يصرّ الباب كصراخ امرأة تطلق متهيئة للولادة، يتسلّل ضوء الشمس الصباحية إلى أحشاء الكوخ، تبدأ الأشياء تتوضّح تدريجاً أمامي، سرير خشبي متهرئ يقعد بهدوء تحت حائط طينيّ والتراب الأحمر الرطب يمتطيه حتى غيّب أطراف الحصيرة النائمة فوقه، أتجه نحو النافذة الخشبية الوحيدة للكوخ وأعالجها، تنفتح بعد لأي وتدخل الشمس لتضيء الأشياء حدّ الألق، في زاوية الكوخ ثمة دلال قهوة التهمها الصدأ والتراب يحفّها، وثمة في الزاوية المقابلة تماماً منضدة تحمل فوقها فانوس التحفه التراب حتى غطى

لونه، وتحت المنضدة ثمة مصيدة فئران لما تزل منصوبة تنتظر، نفضت التراب عن الحصيرة وجلست، شملت أجزاء الكوخ بنظـــرة حـــب وهمست:

- إيه أيها الكوخ، يا بقايا الرجال، ترى أين اجتمعـــوا...؟ وأين جلس فاضل؟

أين غسلتم جسد يوسف؟ أين...

... قال يونس:

- ما جزاء الخيانة أيها الرجال؟
- الموت.
- إذن يجب أن يموت توفيق حتى لو اضطررنا إلى اقتلاعه من حجر الرقيب جاك.

وطوّقنا الصمت المتوتّر المؤسي، يوسف، يوسف، يا أحلى أغنية كانت تصدح في سماء حياتنا، كيف أخرسوا صوتك؟ كيف تركناك وحدك؟ ولكن المهمة التي كنا مشغولين بها، نعم تضامناً مع القريـــة المجاورة ولكن خسرناك يا يوسف، لا أزال أذكـــر كلماتـــك... أنّ موت أحدنا لا يعني التوقف، يجب أن نستمرّ حتى الشهادة من أجل ما نذرنا أنفسنا له، نعم يا يوسف سنكمل المشوار الذي بدأناه معاً، وشاء الرب أن نكمله بدونك، قلت بعصبية:

- نهاجمهم في المخفر ونخرج يوسف عنوة وندفنه.

أتلفّت في الأرجاء باحثاً عن الصندوق، الضوء البكر يتسلّل من خصص النافذة ويعانق وجهي، أتملّى الكوخ بتأن، أتبيّن سقفه الآيل للسقوط، أفكر... إيه يا بقايا جدي، إيه أيها الشاهد علـــى عظمـــة تلك الأيام الزاهية، إيه يا من عاينت جسد يوســـف الممـــدد علـــى

أرضك والرجال يحيطون به بصمت، إيه يا من عاينت السهارى المتطلعين إلى الصباحات المرتقبة الجديدة، طواها النسيان كل هذه الذكريات وبقيت وحدك، وحدك فحسب سرمدياً شامخاً تحاكي أسطورة الرجال، رجال المقلوب...

... أحكمنا الحصار حول المخفر، كان الليل غلساً والمطر مزناً والقمر غائباً، وكأنّ الطبيعة تعاضدنا، زحفنا من الجهات الأربع، نحن الأربعة، يونس، فاضل، سليمان المنهك رغم الجرح في فخده، وأنا... كان نجاح العملية يتوقّف على نجاح مهمتي. زحفت فوق الطين المبلول حتى وصلت إلى المدى الذي تبينت فيه الشرطي الجالس باسترخاء على الأرض تحت المظلة الخشبية، والبندقية ملقاة على فخذه وهو لا ينفكّ يتثاءب بصوت مسموع، حاولت أن لا تصدر مني أية نأمة ولا سيما أني أصبحت قريباً جداً منه، وقبل أن أنقضّ عليه سمعت صوت قهقهات تنسلّ من أحشاء المخفر، همست لنفسي... فرحون بقتل يوسف، سوف تلقون مصيركم بعد قليل، كاد أمري ينكشف حين صرفت على أسناني غيظاً ولكني جمدت كالتمثال، حتى التنفس قطعته وأصبحت مجرّد حجر من أحجار الطريق، وبقفزة عاجلة ومفاجئة، أحكمت يدي حول رقبته وبسرعة القطرات الهابطة من السماء أمسكت فمه بقوة لئلا يصرخ، ثم أغمدت بيدي الثانية نصل السكين في موضع القلب تماماً، أنّ متوجعاً ثم جحظت عيناه عمدت إلى قداحتي وأشعلتها مرتين، رأيت يونس يستوي على سطح المخفر، وفاضل يقف بجانبي وسليمان يقف خلفنا ليلتقط الفلول الهاربة بغدارته، قفزت وفاضل كالشياطين نحو بوابة المخفر ومن هول فرحتي هتفت:

- جاءكم من يثأر ليوسف.

وزخّت رصاصاتي، كانت المفاجأة قد أيبست ألسنتهم، لاذوا بالحيطان، وبغتة رأيت توفيقاً يركض نحو إحدى الغرف، صرخت:

- توفيق.

وقف كالقشّة يرتجف هلعاً وواجهني بوجه ممصوص وعينين متطيرتين تزخ هلعاً، صرخت به:

- ما جزاء الخيانة يا توفيق؟

أخذ يلهج بارتباك:

- ولكن، أنا، أنا، أنا...
- ما جزاؤه؟
- ...

فار الدم في رأسي، هتفت به:

- الموت يا خائن، ستموت الآن يا توفيق.

وقبل أن أطلق سمعت فاضل يصرخ:

- لا يا خضر.

التفت إليه وسألت والدهشة تعقد لساني:

- ماذا...؟
- لا تقتله.
- ولكنه خائن، والخائن جزاؤه الموت.
- أنا معك في هذا، ولكن سنقتله بطريقة أخرى، بهذه الطريقة سيموت لمرة واحدة، ويرتاح، ولكني اهتديت إلى طريقة يموت بها كل إشراقة شمس.
- كيف...؟

- دع الأمر لي.

وانتشر السكون في أرجاء المخفر، اقتدت توفيق إلى الخارج، كان رجال القرية يتوافدون إلى المخفر وهم يهتفون فرادى وجماعات:

- هذا يومكم يا رجال المقلوب.

وانبرى فاضل يخاطبهم:

- يا رجال، يا كلّ دمائنا، يا كلّنا، يا لحماً واحداً وجسداً واحداً، لسنا قتلة بل نحن فداء لهذه القرية وقد خان هذا عهد الرجال فما جزاؤه.

صاح الجميع:

- الموت.
- صدقتم يا رجال، ولكني لن أفعل هذا.

سرت همهمة مسموعة في الحشد قطعها فاضل قائلاً:

- أنا معكم في ما تبغون، ولكن على طريقة أجدادنا، هل لي بمقصّ.

أتاه أحدهم بالطلب، أشار فاضل إليّ فدفعت توفيق المقيّد، وقف صاغراً أمام فاضل وأوصاله تتراجف، تقدّم فاضل نحوه وبحركة سريعة كان عقال توفيق تحت مداس فاضل الذي التفت إلى القوم وقال:

- سأجز ناصيته ونطرده من القرية، ما رأيكم؟

ارتفعت الأصوات:

- نحن موافقون.

وانتهى كل شيء، مات الإنكليز وذلّ الخائن، دلف يونس إلى إحدى الغرف وخرج بعد هنيهة وهو يحمل يوسف، غلّفنا الصمت المقدس، تناوبنا بتقبيله في جبينه، ثم حملناه إلى بيتي تمهيداً لدفنه...

إزاء الصندوق الخشبي المستلقي تحت السرير الخشبيّ تقرفصت أتأمله ساهماً، صندوق طويل نسبياً يبتدئ من الرجل الخشبية اليسرى للسرير ويتطاول حتى منتصف السرير، أسحبه ببطء بكلتا يدي، يطاوعني كطفل يكركر، أنفض عنه التراب فيتطاير الغبار منصهراً في حزمة شعاع الشمس الهابطة من كوّة صغيرة تعلو النافذة، أستنشق رائحة زكيّة تشبه رائحة الهيل، أزيح القفل الضخم يعاندني وهو ينضي عنه قطعاً صغيرة من الصدأ وتنتشر ممتزجة مع التراب الرطب، أولج المفتاح في القفل، أشعر بمقاومة، أدفع المفتاح بقوة ولكن بمهارة وأديره بحذر، وبعد لأي يستدير المفتاح دورة كاملة حول نفسه وينفتح القفل، أرفع غطاء الصندوق وأنظر في أحشائه، فكرت... وأخيراً مع أسرار المقلوب، أقلب عيني في محتوياته، كان الصندوق مقسماً من وسطه إلى قسمين متساويين يقاطع أحدهما قسم ثالث طولي رفيع يمتد من طرفه القصيّ إلى الطرف الجاثم أمامي. كان أول شيء رأيته بندقية قديمة جداً أكل الصدأ ماسورتها الحديدية، احتويتها براحتي يديّ وأخرجتها بلطف، وعندما أصبحت خارج الصندوق لاحظت أنّ ثمة خيطاً رفيعاً يتدلّى من حلقة الزناد وقد عقد في طرفه الآخر ورقة مطوية، قطعت الخيط بعد أن وضعتها على الأرض وعمدت إلى الورقة وفضضتها، كانت تخصّني...

– بني أسعد،

هذه البندقية التي بين يديك هي عينها التي اقتحمت بها مع الرجال المخفر، أرجو أن تعتني بها، وتبقيها ذكرى أبدية، عسى أن تشم رائحتي من خلالها صباح مساء كل يوم وتتذكر أجدادك.

جدك خضر

طويت الورقة بعد أن رفعتها إلى شفتي وقبلتها ووضعتها في جيب سترتي الجانبيّ واتجهت بكلّيتي نحو الصندوق، كان النصف الأيمن منه مملوءاً ومغطىً بورق سميك، عالجته بيدي وأنا أجاهد بإخراجه ولكنه كان ثقيلاً، استويت على قدمي وانحنيت وسحبتها بقوة، لحظة وامضة واستوت الكتلة الورقية الثقيلة في فضاء الكوخ، وضعتها وأنا أتقرفص على أرضية الكوخ، طالعتني جملة خطّت بخط جميل عرفته توًّا، إنه خط جدّي. كانت الجملة تتكون من كلمة واحدة (الأجداد) نفضت الورقة بحذر لئلا تتمزق، وتبين ما تحتها، كانت كتباً ذات أوراق سمراء وصفراء، أخذت أقرأ عناوينها تباعاً؛ المهلهل، عنترة العبسي، سيرة بني هلال، المعلقات السبع، سيف بن ذي يزن، ديوان المتنبي، الطوفان، أساطير بابلية وحكم أحيقار، وكتب كثيرة أخرى غالباً ما كان جدّي يقضي وقته بقراءتها والحديث عنها، عن تلك الرحلات العجيبة للسندباد، عن سلامة ونهايته على يد ذياب، والمهلهل وركوبه على سور بيروت يختال ويزبد متصوراً نفسه يمتطي جواده، وقصص أخرى كان يسردها جدي وينيمني في ليالي الشتاء الطويلة. رتبت الكتب ثانية في مكانها، ثم عمدت إلى النصف الأيسر من الصندوق، كان خاوياً إلاّ من ثلاثة أشياء، خنجر كبير غلافه فضّي يلتمع تحت حزمة ضوء الشمس تزينه خرزة جميلة براقة فيما كانت قبضته من خشب الصاج، ودفتر كبير قرأت عنوانه (رجال المقلوب) ومظروف كبير مغلق، قلبته بين يدي، وصادفتني كلمة كبيرة مكتوبة في منتصفه (الوصية)، ها أنذا أمام الوصية أخيراً، كانت أصابعي ترتجف وهي تفتحه بتوجّس، أخرجت الورقة وأنشأت أقرأ...

– بني أسعد،

أرجو منك أن تبلغ والدك وعمك بدفني في الجهة اليمنى لشجرة الزيتون وعلى بعد ذراعين من جذعها، أما سرّ هذه الرغبة فهو كبير ورائع، لا بد وأنك يا سليلي قد رأيت شواهد قبور يونس وفاضل وداود، أليست في فيء الزيتونة وعلى يسار وخلف شاهد قديم مبني من الآجرّ، إنّ تحت هذا الشاهد تنام عظام يوسف، أما القبر الذي على يساره فهو ليونس الذي وافته المنية بعد طرد الإنكليز بعشر سنوات إثر حمّى شديدة لم تمهله طويلاً، والقبر الذي خلفه فهو لفاضل الذي حضرت – أنت – مراسيم دفنه، أما قصة هذه الشجرة فعجيبة هي الأخرى، وإن فسرت شيئاً فإنها تجلو تلك المعاناة التي عاشها شاكر بعد وفاة ابنه يوسف، فبعد أن استقرّ الوضع آثر شاكر الانزواء، وبعد أشهر رأيناه يحمل شجرة زيتون صغيرة ويتجه نحو المقبرة، ثم رأيناه كل يوم يملأ (مطارته) من الساقية ويتجه إلى المقبرة، نعم يا بنيّ، زرع زيتونة صغيرة قرب قبر ابنه ورعاها بحنان حتى غدت هذه الشجرة الكبيرة المباركة التي يتفيّأ بها ذوو الموتى عند زياراتهم القبور. ما أروعك يا يوسف، ما أكرمك في حياتك وما أكرمك في حياتك الأخرى... إيه على أية حال، أوصيك بأن أدفن على يمين يوسف وبذلك تكون – يا بعض نفسي – قد أدّيت خدمة كبيرة لرجال المقلوب بأن تجمعهم من جديد في مكان واحد.

قد يتبادر إلى ذهنك هذا التساؤل، أين سليمان إذن...؟ وأنا سأكشف لك المكان، إنه وشاكر مدفونان تحت الزيتونة أيضاً ولكن في الجهة الأخرى منها، ما أروع الأقدار، كتب عليك يا

سليمان أن تحمي ظهورنا حتى بعد الحياة، وكتب عليك يا شـــاكر أن ترعانا وتوقد فينا جذوة الرجال الأفذاذ.

وختاماً يا بني، إني لم أخلّف لك مالاً وحلالاً، فكـــل هـــذه الأمور من توافه الحياة، كل الذي استطعت أن أقدمه لكم حيـــاة شريفة تأبى أن تنكّس رأسها وتحني ظهرها للغريب المحتـــل، لـــك الخيار في قبول هذا الرأي ورفضه، ولكننا وباعتقادي اســـتطعنا أن نقدم سيرة لا تخجل عن رجال المقلوب...

أي بني...

حبـــي لكم جميعاً

جدك خضر

رفعت رأسي، شعرت بالفخار، يجب أن ألحق بهم قبل دفنـــه، ولكن لا، إنهم ينتظرونني. طويت الوصية جيداً وأودعتها مظروفهـــا ودسستها في جيبـــي، نظرت إلى الصندوق صفعتني الكلمات الكبيرة (رجال المقلوب) شعرت برهبة تنتابني، انحنيـــت علـــى الصـــندوق وأحكمت رتاجه، لم أغلق النافذة وأنا أخرج، وعندما أصـــبحت في باحة الكوخ رأيت الدنيا تغتسل بالضوء والشمس في رحلة ســـهلة لاحتلال قبة السماء.

الفصل الرابع

الوصية

وإذا كان صعباً أن يُصدق أن يمشي الإنسان فوق الغيوم، أو أن يبقى معلقاً في قفزة جبارة بين الأرض والحالق اللامتناهي... فمن المحال أن يصدّق أنّ ذلك الرجل بكل عنفوانه الشبابي الذي لم يكن يعدو الثمانين حولاً، أن يموت وأن تُسبل جفناه ولا يبقى منه سوى جسد صافن ينتظر المطاف ويثوى في التراب، انتهى كل شيء إذن، صمت وإلى الأبد صوته الجهوري الملوّن بالفحولة، لا أزال أتذكر كلماته النيّرة:

- يا بنيّ، إن أردت أن تكون رجلاً حقيقياً بكل ما تحمله هذه الصفة من عنفوان وصدق وأصالة، إن أردت أن تكون كذلك أمام نفسك (وهذا بيت القصيد) وأمام الناس، فعليك أن تقتل ظلّ الرجل الكامن في أعماقك، عليك أن تنهي الرجل السقيم أولاً لكي تشرق شمسك على المدى الفسيح المنفرش في أغوارك دون أية ظلال، أو بمعنى آخر، أن تقتل نصفك المخاتل المنافق، المتردد، والجبان، وأن تلقيه بلا ندم خارجاً...

***

معول تلتمع حديدته الحادّة تحت ألق النهار، يهبط منغرزاً في التراب الهش اللابد من شاهدتي قبرين قديمين، يرتفع نافضاً بقايا ذرّات التراب العالق في نهايته الحادّة، يتوقف لحظة قصيرة في الهواء

كمن ينازع بين قوتين متعاكستين، ثم ينحدر بقوة أكبر نحو عمق التراب، تتحدّد الحفرة مستطيلة فارعة الطول، وعميقة. أرى جدي مجرد قطعة قماش بيضاء ملفوفة، ملقاة على البلاط، وبغتة ألمح خضر إلياس يترجّل عن حصانه ويربطه بجذع شجرة عجوز، ويتسلل ماشياً بجلال قدسي نحو النعش، كانت الدموع تطفر من عينيه القدسيتين كقطرات شفافة من ندى ربيعي، ووقف من علٍ ينظر تحت، حيث يرقد جدّي على البلاط. وعندما حمل الرجال نعش جدي كان أحد أطرافه يرتكز على كتفي الخضر، ولما استوى جدي فوق عتمة الحفرة المستطيلة تحت شجرة الزيتون تلفت جانباً حيث يحمل خضر إلياس الركيزة الأمامية اليمنى للنعش، كان قد اختفى..! استراح النعش في صيرورة عتمة الرمس، وقفت واللحظة النادرة تسكنني، مسبلاً طرفي في خشوع وانذهلت إذ رأيت جدي يمزق كفنه ويستوي واقفاً أمامي وثمة بسمة مشرقة ترفّ على شفتيه القرمزيتين هتفت:

- جدّي...!؟

همس وهو يضع سبابته على فمي:

- دون ضوضاء.

وبعد صمت...

- هل أنت جدير بحمل اسمي...؟

أجبت وقد عقد لساني:

- أطمح في هذا.

- إذن أمامك رحلة شاقّة وطويلة لكي تصبح مؤهلاً.

- أنا لها.

- صعبة، شاقة.

- سأعارك المستحيل، وأعبر المشاقّ، وأنطح الجبال.
- إنها ليست بذات تعب جسدي، قدر ما هي حرب مع النفس.
- سأخوضها.
- قد تتحطم.
- وقد أسمو.
- والخوف؟
- سأقتله.
- والتردد...؟
- لا تردد.
- والهزيمة.
- سأنتصر.

قال بحكمة جبلتها السنين:

- ولكنه مخاتل، ذلك الرجل الذي يصفّد دواخلك، إنه مثل الثعلب يدعك تقبض عليه وتهزأ به، ولما تدخل القرية، حيث الدجاج والحمام يميل رقبته ويقطع أنفاسه وعندما تلقيه أرضاً بعد أن تتيقن من موته يركض بغتة نحو الدجاج ويقبض واحدة بفمه ويبتعد بغنيمته هازئاً بك.
- سأصبح ظله.
- وعراكه لا يحتاج إلى شجاعة وحسب، بل إلى دراية وحذر.
- وذكاء أيضاً.
- وقتله يحتاج إلى قلب قاس.

- قلبـــي قدّ من حجر.
- ولكنني أرى الظلال جاثمة.
- دلّني على الطريق يا جدّي.
- اذهب إلى نبع بكر لم يُدنس واغمر جسدك فيـــه، آنئـــذ سيبرز إليك الرجل وتكون الواقعة، فإن انتصر تصبح مجرد إنسان حقير لا يحمل من الإنسانية ســـوى الكلمـــة، وإن حطّمته ستهرب الظلال نهائياً من أعماقك وتشرق الشمس آنئذ على مدى روحك الفسيح.

توقف قليلاً وهو يمسحني بنظراته وقال:

- ولن ألبس كفني إلاّ بعد أن تقع الواقعة، فإن انتصر عليـــك سألبسه ذليلاً خجلاً من مواجهة الحق الأعلى وإن حطمته فسألبسه مزهواً وبشوق لمواجهة الحق الأسمى.

ومشى كالجبل نحو باب المقبرة واختفى، تهالكت على شـــاهدة قبر مجاور والرجفة ترتديني، فيما كان الرجال يهيلون التراب علـــى مجرد قماش أبيض ممدد في جوف الحفرة المستطيلة.

***

السيرة الذاتية

هيثم بهنام بردى

قاص وروائي وكاتب أدب طفل

الاسم الكامل: هيثم بهنام جرجيس بردى

- ولد في العراق/ عام 1953.
- عضو اتحاد الأدباء العراقيين.
- عضو اتحاد الكتاب العرب.
- عضو نقابة الفنانين العراقيين.
- عضو فخري مدى الحياة في دار نعمان للثقافة اللبنانية.
- رئيس تحرير مجلة إنانا التي تعنى بشأن المرأة.

حضر وشارك في مهرجانات وملتقيات عديدة أبرزها:

- الندوة العربية الأولى للقصة الشابة التي أقامتها مجلة الطليعة الأدبية في بغداد عام 1980.
- ملتقى القصة العراقية في بغداد عام 1995.
- ندوة الرواية العربية في بغداد عام 2002.
- الملتقى الثالث للقصة القصيرة جداً في حلب عام 2005.
- الملتقى الرابع للقصة العراقية (ملتقى د. علي جواد الطاهر) في بغداد 2008.
- مهرجان المربد ولعدة دورات.
- مهرجان الجواهري عام 2010 وعام 2012.
- مؤتمر ثقافة الأطفال الدولي الأول في بغداد عام 2010.
- معرض إيطاليا الدولي للكتاب في إيطاليا (مدينة تورينو) عام 2014، ألقى فيها محاضرة في "القاعة الزرقاء" عن الأدب السردي العراقي الحديث.

أصدر الكتب التالية:

1. الغرفة 213 – رواية، مطبعة أسعد، بغداد 1987.

2. حب مع وقف التنفيذ – قصص قصيرة جداً، مطبعة شفيق، بغداد 1989.
3. الليلة الثانية بعد الألف – قصص قصيرة جداً، منشورات مجلة نون، الموصل 1995.
4. عزلة أنكيدو – قصص قصيرة جداً، مطبعة نينوى، بغداد 2000.
5. الوصية – قصص قصيرة، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة، بغداد 2002.
6. الذي رأى الأعماق كلها – كتاب انثيالات، مطبعة ميديا، أربيل 2007.
7. مار بهنام وأخته سارة – رواية، مركز أكد للطباعة والإعلان – عنكاوا، أربيل 2007.
8. قديسو حدياب – رواية، مركز أكد للطباعة والإعلان – عنكاوا، أربيل 2008. صدرت باللغة السريانية عن دار (منارة) في أربيل عام 2011، ترجمة كوركيس نباتي.
9. تليباثي – قصص قصيرة، دار نعمان للثقافة، بيروت 2008. صدرت طبعتها الثانية عن دار الينابيع بدمشق عام 2010.
10. التماهي – قصص قصيرة جداً، دار الشؤون الثقافية العامة – وزارة الثقافة، بغداد 2008.
11. قصاصون عراقيون سريان في مسيرة القصة العراقية، إعداد وتقديم، إصدار المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية، أربيل 2009. صدرت طبعتها الثانية عن دار تموز للطباعة والنشر، دمشق 2012. أصدر ترجمتها إلى اللغة الكوردية أحمد محمد إسماعيل وصدرت عن المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية عام 2012.
12. القصة القصيرة جداً في العراق، إعداد وتقديم المديرية العامة لتربية نينوى، الموصل 2010. صدرت طبعتها الثانية (مزيدة ومنقحة) عن دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة العراقية، بغداد 2015.
13. القصة القصيرة جداً – الأعمال القصصية 1989–2008، دار رند للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2011.
14. نهر ذو لحية بيضاء – مجموعة قصصية، دار رند للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2011.
15. سركون بولص عنقاء الشعر العراقي الحديث، إعداد وتقديم، إصدار المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية، أربيل 2011.

16. قصاصون عراقيون سريان في مسيرة القصة العراقية القصيرة جداً، دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2012.
17. روائيون عراقيون سريان في مسيرة الرواية العراقية، دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2012.
18. أرض من عسل – مجموعة قصصية، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية – سوريا 2012.
19. كتّاب أدب طفل عراقيون سريان في مسيرة أدب الطفل العراقي، مطبعة شفيق، بغداد 2013.

له في أدب الطفل الإصدارات التالية:

1. الحكيمة والصياد – مسرحية للفتيان، مطبعة بيريفان، أربيل 2007.
2. مع الجاحظ على بساط الريح – سيرة قصصية للفتيان، دار رند للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2010.
3. العشبة – مسرحية للفتيان، مطبعة الديار، الموصل 2013.

كتب صدرت عن أدبه:

1. حبة الخردل – دراسات نقدية عن تجربة القاصّ هيثم بهنام بردى في كتابة القصة القصيرة جداً، إعداد وتقديم خالص ايشوع بربر، منشورات اتحاد الأدباء السريان، الموصل 2005. صدرت طبعته الثانية عن دار رند للطباعة والنشر والتوزيع في سوريا عام 2010.
2. شعرية المكان في القصة القصيرة جداً – قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى، د. نبهان حسون السعدون، دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2012.
3. تجليات الفضاء السردي – قراءة في سرديات هيثم بهنام بردى، إعداد وتقديم: أ. د. محمد صابر عبيد، دار تموز للطبعة والنشر والتوزيع، دمشق 2012.
4. أسماء في ذاكرة المدينة، هيثم بهنام بردى، إعداد وتقديم وحوار نمرود قاشا، مطبعة شفيق، بغداد 2012.
5. شباط ما زال بعيداً – دراسات نقدية في المجموعة القصصية أرض من عسل لهيثم بهنام بردى، إعداد وتقديم جوزيف حنا يشوع، مطبعة الديار، الموصل 2012.

6. الكون القصصي، تجليات السرد وآليات التمظهر، قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى، محمد إبراهيم الجميلي، مطبعة الديار، الموصل 2013.
7. الثريا، دراسات نقدية عن تجربة القاص هيثم بهنام بردى في كتابة القصة القصيرة جداً، إعداد وتقديم خالص ايشوع بربر، مطبعة شفيق، بغداد 2014.
8. جماليات تشكيل الوصف في القصة القصيرة، قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى، د. نبهان حسون السعدون، دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2014.
9. المهيمنات القرائية وفاعلية التشكيل السردي في مجموعة نهر ذو لحية بيضاء، إعداد وتقديم ومشاركة الدكتور خليل شكري هياس، دار نينوى للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2014.

دراسات أكاديمية عن أدبه:

- حاز الأستاذ محمد إبراهيم الجميلي شهادة الماجستير بدرجة "جيد جداً" من كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل بتاريخ 2013/3/3 عن رسالته الموسومة (السرد في قصص هيثم بهنام بردى القصيرة).
- حازت الأستاذة نادية نزهة سليمان شهادة الماجستير بدرجة "امتياز" من كلية التربية للبنات – جامعة تكريت، بتاريخ 2014/2/17 عن رسالتها الموسومة: (جماليات القصة القصيرة جداً، هيثم بهنام بردى مثالاً).
- حاز الأستاذ همام حازم عطا شهادة الماجستير بدرجة "جيد جداً عالي" من كلية الآداب – جامعة تكريت، بتاريخ 2015/1/11 عن رسالته الموسومة (العتبات النصية في سرد هيثم بهنام بردى القصصي).

الجوائز:

- حائز جائزة ناجي نعمان الأدبية اللبنانية لعام 2006.
- حائز الجائزة الأولى في مسابقة القصة القصيرة التي أقامتها دار الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة العراقية عام 2006 عن قصته القصيرة "النبض الأبدي".
- حائز على الجائزة الثانية في مسابقة وزارة الثقافة لمسابقة أدب الأطفال، دار ثقافة الأطفال، جائزة (عزي الوهاب للنص المسرحي) عام 2010 عن مسرحيته الموسومة (العشبة).

- حائز على الجائزة الثانية في مسابقة القصة القصيرة التي أقامها قصر الثقافة والفنون في محافظة صلاح الدين عن قصته الموسومة (الرسالة).

ورد اسمه:

- في كتاب (موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، الجـــزء الثالـــث، صفحة 281) الصادر عن دار الشؤون الثقافية العامة عام 1998 لمؤلفـــه الأستاذ حميد المطبعي.
- في كتاب (موسوعة أعلام الموصل في القرن العشـــرين، صـــفحة 600) الصادر عن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل – مركز دراسات الموصل، عام 2007، لمؤلفة الأستاذ الدكتور عمر الطالب.

الترجمة:

- ترجمت بعض قصصه إلى اللغة الإنكليزية والهولندية والفرنسية والإيطالية.